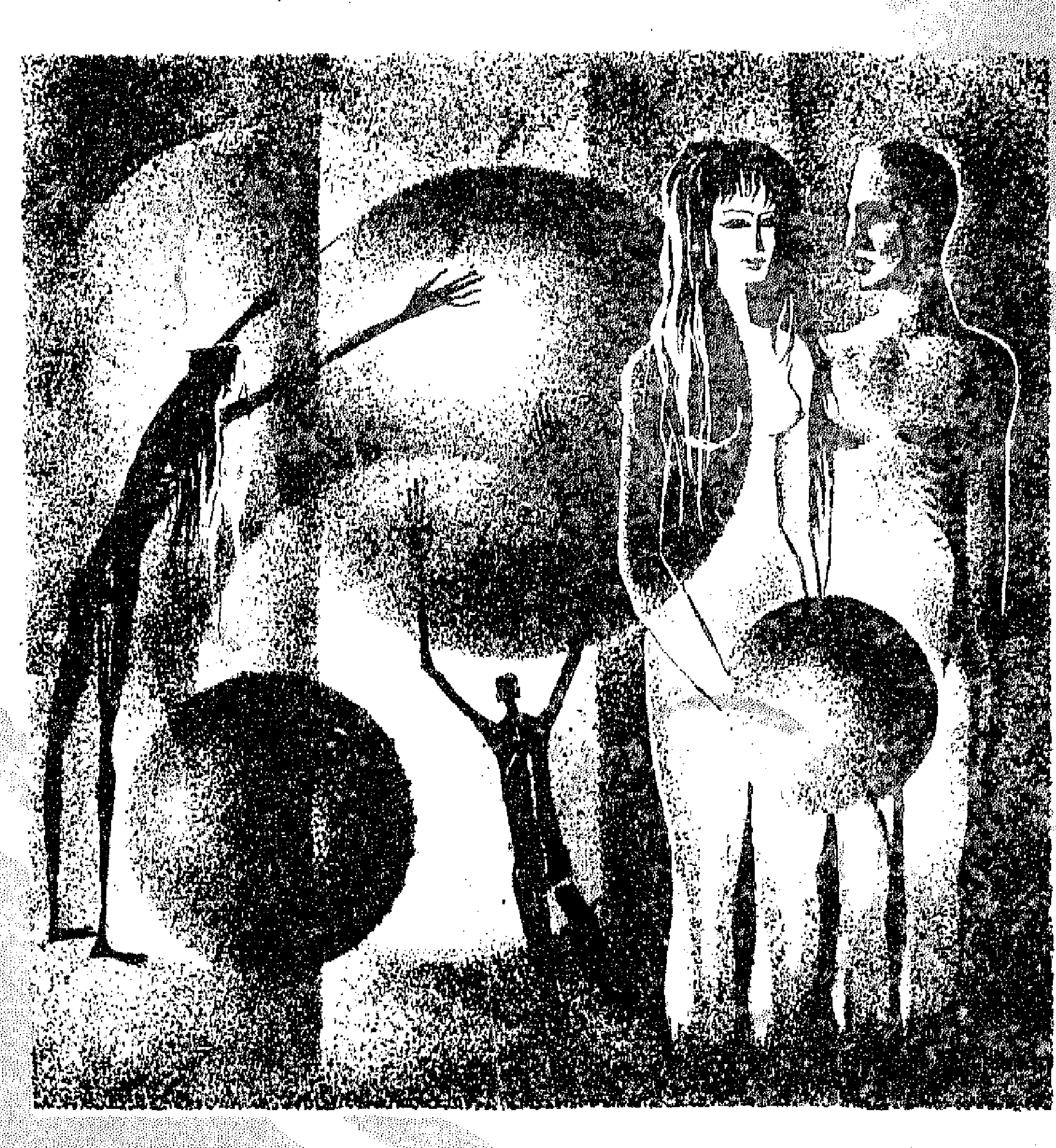
إقرأ

كوكب الإنسانية



أحمد حسين المحامي

دار المعارف بمصر

كوكب الإنسانية

أحمد حسين المحامي

كوكب الإنسانية

بحث في وحدة الأرض
موطن الإنسان وجنسه ولغته

اقرأ ٢٩٤
دار المعارف بمصر

اقــرأ ٢٩٤ — يونية سنة ١٩٦٧

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . ع . م .

كوكب الإنسانية

حدد الأمريكان عام ١٩٧٠ للوصول إلى القمر، وهنالك قول إن الاتحاد السوفييتي سيكون هو الأسبق فى الوصول إلى القمر ، على أن ما يهم الإنسانية فى مجموعها هو أنه أيا كان الواصل إلى القمر ، فإن ذلك يعنى بدء مرحلة جديدة فى حياة الإنسانية ، حيث تخرج من سجنها الذى سجنته عبر الدهور وملايين السنين ، على ظهر هذا الكوكب وتنطلق إلى بقية الكواكب فى أرجاء الكون الفسيح .

وإذا كان الإعداد للوصول إلى القمر قد احتاج إلى عشرين عاماً ، فإن الوصول إلى بقية الكواكب لن يحتاج إلا لبعض هذا الزمن ، فمركبة الفضاء التى تبنقل الإنسان إلى القمر وتعيده منه، هى بذاتها بعد تعديل فى الأحجام والمقاييس والأوزان ، التى سوف تنقله إلى المريخ والزهرة وغيرها .

وسيشهد القرن الحادى والعشرون ، انتشار الجنس الإنسانى فى المجموعة الشمسية كلها ، وستبدو الأرض لرواد الفضاء المنطلقين بين المجموعة الشمسية ، كوكباً مضيئاً كبقية كواكب المجموعة كما نراها الآن من الأرض .

ولن يفكر هؤلاء الرواد الفضائيون وهم ينطلقون عبر الفضاء إلا أنهم بشر من بنى الإنسان ، ولن ينظروا إلى الأرض إلا باعتبارها وطنهم ، أو بالأحرى قريتهم وبيتهم الذى يحنون إلى العودة إليه، ستذوب الفوارق الجنسية والقومية ، ولن يبقى إلا الكوكب الأرضى والإنسان .

فما أحوج البشر منذ الآن أن يستعدوا لهذه المرحلة الجديدة بأفكار جديدة ، ودنيا من الفهم جديدة ، وإنى لأرجو بهذا الكتيب أن أسهم فى هذه المحاولة الواجبة ، فأتحدث عن وحدة الكوكب الإنسانى من الناحية الجغرافية ، وعن وحدة الجنس البشرى من الناحية البيولوجية ، وعن وحدة اللغة الإنسانية فى جوهرها ، باعتبارها نتاج العقل الإنسانى ، مهيئا بذلك السبيل لأبحاث فى هذا الاتجاه أكثر عمقاً .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب وهو رب العرش العظيم .

أحمد حسين

الروضة – القاهرة – ١٧ / ٣ / ١٩٦٧

الفصل الأول

كيف تكونت الأرض – الأوربيون فى العصور الوسطى – عمر الأرض والطرق الحديثة لمعرفته – تكون الصخور النارية – تكون الصخور الرسوبية – باطن الأرض – الكرة الأرضية – الأرض كما نعيش عليها – الإنسان وشكل الأرض – انفصال القمر عن الأرض – العصور الجيولوجية – الدهر السحيق – الدهر الوسيط – الدهر الحديث – الأرض التى نعرفها – مساحة المحيطات – مساحة القارات – نشأة الحياة من الأرض – الفكر الإنسانى .

وحدة الوجود :

توصل الإنسان بالإلهام فى بادئ الأمر ، ثم عن طريق الفطرة والاستدلال ثانياً ، وأخيراً عن طريق العلم التجريبى الحديث إلى وحدة مادة الطبيعة التى يتألف منها الكون . وعلماء القرن العشرين يعتبرون الضوء هو الأصل الذى تطورت عنه بقية الموجودات الأخرى ، وأن الشعاع الضوئى لسبب من الأسباب ، قد تحول إلى موجات كهرومغناطيسية ، والموجات الكهرومغناطيسية قد تحولت إلى إلكترونات وبروتونات ومن هذه البروتونات والإلكترونات تكونت الذرات التى تألفت منها مختلف عناصر المادة ، ابتداء من الإيدروجين ، ومن الإيدروجين تكونت شتى أنواع الغازات التى تألفت منها السدم ، ومن السدم نشأت المجرات والنجوم ، وليست شمسنا التى نعرفها والتى تبعث الضوء والحرارة والحياة على الكوكب الأرضى ، سوى نجم من هذه النجوم التى لا حصر لها ، والتى تقوم على احتراق الإيدروجين الدائم ، ومن هذه الشمس انفصلت الأرض ، وبحكم هذا الأصل فإن الأرض ظلت تابعة للشمس تدور حولها كبقية الكواكب التى انفصلت بدورها عن الشمس .

وليس من هدف هذا الكتاب ، ولا هو من اختصاصى أن أخوض فى نظريات طبيعية حول أصل الأرض وهل انفصلت عن الشمس كما تقول بعض النظريات ، أم هى شظية من نجم آخر انفجر فى سالف العصر والأوان ، ثم راحت تدور حول الشمس بفعل الجاذبية ، ولا أن نتعرض لتفاصيل النظريات التى تقول بسبب انفصال الأرض عن الشمس ، وأن ذلك قد تم بفعل تلقائى نتيجة دوران الشمس ، أو نتيجة مرور نجم

آخر بالقرب منها ، فكل هذه نظريات وفروض علمية تقوم على التخمين وتتغير من حين لآخر حسب اختلاف نظرة الإنسان إلى الكون من حوله ، وازدياد معارفه بما يتضح له كل يوم من حقائق وكشوف علمية .

ولا جدال عندنا ، أن إنسان القرن الحادى والعشرين ستكون لديه نظريات أكثر إحكاماً ودقة عن علاقة الأرض بالشمس وبقية الكواكب الأخرى ، وعن أصل الكون ومادته الأولى ، وذلك بعد أن يكون الإنسان قد خرج نهائيا من سجنه فوق سطح الأرض ، وانطلق إلى الفضاء الكونى وارتاد كواكب المجموعة الشمسية ، ونفذ منها إلى باقى الأجرام السماوية والمجرات .

وحسبنا فى هذا المقام ، مقام الحديث عن أمنا الأرض أن نلوذ بالحقيقة المادية التى نعيش فوقها وفيها .

الكوكب الأرضى :

بدأت حياة الكوكب الأرضى على شكل كرة هائلة من المواد الملتهبة ، تنطلق فى الفضاء بسرعة ١٨٫٥ ميلا فى الثانية دائرة حول الشمس على بعد ٩٣ مليون ميل تقريباً فيما يوصف هندسيًّا بأنه قطاع ناقص (إهليلجى) أى أقرب إلى شكل البيضة منه إلى الكرة .

متى بدأ هذا الحادث وفى أى عصر سحيق ، وكم مرّ عليه من الزمن؟ تلك مسألة لم يستطع أكثر العلماء جموحاً فى الخيال والافتراض أن يحدد له وقتاً . . . فكل التقديرات لعمر الأرض تبدأ بعد هذا الحادث الأول بمدة لا يستطاع تقديرها ، عند ما بدأ سطح الأرض يبرد وتتكون بالتالى

القشرة الأرضية متألفة من الصخور التى نعرفها ، وبعد أن تكونت بحارها وجبالها وأنهارها .

الأوربيون فى العصور الوسطى وعمر الأرض :

على أن الأوربيين فى العصور الوسطى لم يجدوا أى صعوبة فى تحديد عمر الأرض ، فقد كان بحسبهم أن يرجعوا إلى التوراة (العهد القديم) لكى يعتقدوا اعتقاداً جازماً أن الأرض قد خلقت عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد ، وانحصر الخلاف بين الثقات من أهل العلم حول الفصل الذى تمت فيه عملية خلق الأرض ، وهل كان فصل الخريف أو الربيع من عام ٤٠٠٤ ق. م[١] .

ولكن الشعوب التى سبقت أوربيى العصور الوسطى ، كان لهم رأى فى عمر الأرض يختلف كل الاختلاف عن هذا المدى القصير ، وقد بلغ الهنود إلى حد من الدقة فى تعيين عمر للأرض يقرب إلى عمرها الذى أصبح يقدر به فى العصر الحديث على ضوء آخر الحقائق العلمية[٢] .

الطرق الحديثة لمعرفة عمر الأرض :

على أن الأوربيين فى القرن التاسع عشر ، عدلوا عن حكاية خلق الأرض عام ٤٠٠٤ ق . م . ولجأوا إلى عدة وسائل وأساليب جديدة

---

(١) هـ . ج . ويلز مختصر تاريخ العالم (بالإنجليزية) ص ١٣ .

(٢) يقدر الهنود عمر الأرض بـ ٠٠٠و١٣٦و١٥٩و٢ وتقدير عمر الأرض علميا فى العصر الحديث هو ٠٠٠و٠٠٠و٠٠٠و٢ .

أحمد زكى – مع الله فى السماء – ص ١٤٢

لتقدير عمر الأرض ، كانت كلها تنتهى بأن الأرض أقدم عهداً مما كانوا يظنون .

أما أول هذه الأساليب فهو قياس عمر الأرض من خلال تقدير كمية الملح المذاب فى مياه البحار والمحيطات، إذ لما كانت هذه الأملاح قد جاءت بواسطة الأنهار ، فيكون عمر الأرض هو حاصل قسمة كمية الملح الموجود فى المحيطات على مقدار ما تحمله الأنهار إلى البحار من ملح فى كل عام .

وحسب عمر الأرض بطريقة أخرى ، فالملاحظة تثبت أن الرياح والأمطار ينحتان سطح الصخور ، بدون انقطاع ، ويحملان الفتات إلى أماكن أخرى ، حيث تكون نتيجة ذلك طبقات رسوبية . وبمعرفة ما تحمله الريح أو المياه من هذه الرسوبيات كل عام ، وقسمة سمك الطبقة الرسوبية على هذا القدر السنوى ، يؤدى حاصل القسمة إلى عمر الأرض . ولكن علماء الجيولوجيا أخذوا على هذين الأسلوبين استنادهما إلى معدل سنوى ثابت من الأملاح أو الرسوبيات ، وهو ما يخالف الواقع ، إذ أن الظروف متغيرة من عام لآخر ولا يمكن أن يكون معدل الزيادة السنوية ثابتاً سواء فى ملح البحار أو المواد الرسوبية . ولذلك فقد لجأوا إلى طريقة أكثر دقة وإحكاماً ، تكاد تبلغ دقتها (فى تقديرهم) مبلغ الساعة ، وذلك باستخدام خصائص المواد المشعة كالراديوم والثوريوم ، فإشعاع هذه المواد يعنى أنها تتفتت بالتدريج بمعدل ثابت ، اكتشفوا أنه لا يتأثر قط بالحرارة مهما اختلفت ، ولا بالضغوط مهما ارتفعت . وعلى ذلك فقد اعتبرت عملية الإشعاع بمثابة ساعة زمنية متناهية فى الدقة ، ذلك أن اليورانيوم يتحول إلى رصاص بنسبة معينة ، وبحساب كمية الرصاص فى أى صخرة من الصخور ونسبته إلى ما فيها من اليورانيوم يمكن حساب الزمن الذى استغرقه اليورانيوم حتى تحول إلى رصاص .

وعن هذا الطريق أمكن تحديد عمر بعض الصخور بـ ١٣٠٠ مليون سنة [١] ، كما حدد عمر صخور أخرى بـ ١٦٠٠ مليون سنة [٢] . ولما كانت القشرة الأرضية ، قد تكونت فى عصور متأخرة جداً من حياة الأرض ، فالفرض العلمى الذى يتردد الآن حول تقدير عمر الأرض يتراوح بين ٢٠٠٠ ، ٣٠٠٠ مليون سنة [٣] .

ويقولون إن منظر الأرض كان فى العهد السحيق أكثر ما يكون شبهاً بالمنظر داخل أفران الحديد العالية ، حيث تشتعل خامات الحديد والفحم الحجرى الجيرى مكونة كتلة ذائبة من اللهب المخيف ، وكانت هذه الكرة الملتهبة المنطلقة فى الفضاء (الأرض) مغلفة بأدخنة النيران والسحب الحمراء المتوهجة .

تكون الصخور النارية :

وعلى مر الملايين من السنين بدأ سطح الأرض يبرد ، والسحب النارية التى تغلفها تسقط عليها مطراً ، مطراً لا ينقطع ليلا أو نهاراً ، صيفاً أو شتاء ، وتنقضى ملايين أخرى من السنين على هذه الوتيرة ، وتتكون الصخور الجامدة التى تؤلف القشرة الأرضية . ولما كانت هذه الصخور عندما تتجمد تصبح أثقل وزناً من المواد الأخرى الذائبة فقد بدأت تغوص ، ويحل محلها المواد الذائبة الأخف وزناً ، وتبرد المواد الذائبة الجديدة بدورها ، فتغوص من جديد ليطفو غيرها . وعلى هذا النهج

---

(١) الفلك العام — ص ٣٩ .

(٢) مختصر تاريخ العالم — ص ١٨ .

(٣) الفلك العام — ص ٣٩ .

تكونت القشرة الأرضية الأساسية للكرة الأرضية والتى أصبحت تتألف من نوعين رئيسيين من الصخور النارية المتجمدة ، البازلت وهو الأثقل وزناً، تعلوه صخور الجرانيت الأخف وزناً بعض الشيء .

تكون الصخور الرسوبية :

على أن الأمطار التى كانت لا تنفك تهطل على سطح الأرض بدون انقطاع ، سرعان ما بدأت تؤثر على هذه الصخور إذ تفتتها بالتدريج وتحمل الفتات مع تيارات المياه المتجمعة لكى تترسب من جديد فى مكان آخر ، فنشأت عن هذه العملية ما يعرف بالصخور الرسوبية .

ومن هذه الصخور الرسوبية والنارية ومشتقاتهما تكون سطح الكرة الأرضية فى هذه العصور السحيقة .

القشرة الأرضية :

وهذا السطح الذى نتحدث عنه ، أو بالأحرى القشرة الأرضية لا تعدو أن تكون قشرة رقيقة جداً ، بالنسبة إلى حجم الكرة الأرضية ، ولعل أقرب شبه لها قشرة التفاح الرقيقة بالنسبة لباقى حجمها ، فهى لا تتجاوز ٥٠ كيلومتراً من ٤٠٠٠ كيلومتر مقدار طول نصف الكرة الأرضية ، أى بنسبة $\frac{١}{٨٠}$.

ويذهبون بالشبه بين الكرة الأرضية والتفاحة حتى نهايته فكما أن قشرة التفاحة تتغضن بعد قليل من قطفها ، فكذلك تغضنت القشرة

الأرضية نتيجة ما حدث فى باطن الأرض من تقلصات بعد برودتها . فكانت الجبال والمضاب والوديان والسهول .

باطن الأرض :

لا يزال باطن الأرض ، يشير إلى أصلها وماضيها عند ما كانت كلها تتألف من مواد ملتهبة ذائبة ومن غازات ملتهبة وأبخرة ، إذ لانكاد نوغل فى باطن الأرض حفراً بمقدار مائة متر فقط ، حتى ترتفع الحرارة ثلاث درجات مئوية . وفى المناجم التى يحفرها الإنسان بحثاً عن مختلف المعادن ، وخاصة الذهب التى وصل عمق بعضها إلى كيلومتر ، فإن الحرارة ترتفع داخل هذه المناجم ثلاثين درجة . وفى أحد مناجم أفريقيا الخاصة بتعدين الذهب والتى ناهز عمقها ثلاثة كيلومترات ، وصلت إلى ما يقرب من درجة الغليان ، ولا يستطيع العمال أن يعيشوا فضلا عن أن يعملوا فى هذا المنجم إلا بعد استخدام آخر مبتكرات العلم الحديث فى تكييف الهواء وجعله مناسباً .

وكثيراً ما تتفجر ينابيع المياه الساخنة والتى تصل إلى درجة الغليان فى أعقاب الزلازل ، وما أكثر الينابيع الحارة التى يستشفى بها الناس فى أرجاء العالم ، والتى تنبثق كلها من أعماق تتناسب مع درجة حرارتها بالمعدل السابق الإشارة إليه .

وتمضى القاعدة فى اطرادها من ارتفاع الحرارة ٣ درجات كل مائة متر ، فعلى عمق ٥٠ كيلومتراً من سطح الأرض تصبح درجة الحرارة ١٢٠٠° مئوية ، وقد أيدت المشاهدة هذه الحقيقة ، فالحمم البركانية التى

تنبثق من عمق قدره ٥٠ كيلو والمؤلفة من صخور ملتهبة ذائبة، تبلغ درجة حرارتها ١٢٠٠° [١] .

وقد ظن فى فترة ما ، أنه يجب تعميم هذا القانون ، وعلى ذلك فإن درجة الحرارة فى مركز الأرض يجب أن يكون ٣٠٠ ألف درجة مئوية وهو ما لا يتصور معه وجود مادة متماسكة ، ولكن أحدث الآراء العلمية تقول إن باطن الأرض لا يمكن إلا أن يكون كرة صلبة إلى حد ما كأثر من آثار الضغوط الرهيبة الواقعة عليه .

وهكذا تتضارب الآراء عما يمكن أن يكون عليه باطن الأرض، ولم يستطع العلم الحديث أن يقطع برأى فى هذا الموضوع الذى لا يبعد عن الإنسان بأكثر من ٤٠٠٠ ميل ، وذلك فى الوقت الذى يرنو فيه إلى القمر وبقية الكواكب الأخرى ويوشك أن يصل إليها ، وهى التى تبعد ملايين الكيلومترات . ولا عجب فى ذلك ولا غرابة ، فأقرب الأشياء إلى الإنسان هو أعصاها على الفهم والعلم ، ولا نحسب أن هناك ما هو أقرب إلى الإنسان من نفسه التى بين جنبيه ، أو أغوار عقله الباطن ، ومع ذلك فإن الإنسان لا يعرف من أمر هذه الأغوار إلا فروضاً وتخيلات، فى الوقت الذى يتصدى فيه للكلام عن السماء والأرض والنجوم والأفلاك، ويكتشف قوانين الطبيعة ونواميسها.

الكرة الأرضية كما نعيش عليها :

ويمكن تلخيص طبيعة الكرة الأرضية كما نعيش عليها الآن على الصورة الآتية :

---

(١) الدكتور أحمد زكى — مع الله فى السماء — ص ١٢٨ .
إديث راسكين — العالم من حولنا — ص ١١٨ .

● كرة ملتهبة من المواد الحديدية الذائبة ، لايعرف بالضبط الكيفية التى توجد عليها نواة هذه الكرة .

● تلف هذه الكتلة الكروية الملتهبة المؤلفة من المواد الذائبة قشرة من الصخور البازلتية والجرانيتية والرسوبية والتربة الأرضية .

● يلف الماء الجزء الأكبر من هذه القشرة الأرضية (٧٠٪).

● يلف الصخر والماء معاً طبقة من الغازات تمتد إلى بضع مئات من الكيلومترات تحيط بالأرض ، على أن ثلاثة أرباع هذه الغازات أو الهواء من حيث الكمية تتركز فى تسعة أميال أو خمسة عشر كيلومتراً حول الأرض[١] .

والكرة الأرضية ليست كاملة الاستدارة ، فإن حركة دورانها تجعلها أقرب إلى شكل البرتقالة ، بمعنى أنها مفلطحة بعض الشىء عند القطبين ، فينقص محورها الواصل بين القطبين ٢٤ ميلا عن قطرها المار بخط الاستواء والذى يبلغ طوله ٨٠٠٠ ميل. أما محيط هذه الكرة عند خط الاستواء ، أى فى أوسع أبعادها فهو (٢٤,٩٠٢) من الأميال . وتدور الكرة الأرضية حول محورها مرة فى كل أربع وعشرين ساعة ، وتدور حول الشمس مرة فى كل ٣٦٥ يوماً وربع يوم تقريباً .

وينشأ الليل والنهار نتيجة دوران الأرض حول نفسها ، كما تنشأ الفصول الأربعة نتيجة دوران الأرض حول الشمس . ولو أن مدار دوران الأرض كان عمودياً على خط الاستواء لوجب أن يتساوى الليل والنهار فى الطول ، وتتساوى الفصول الأربعة فى درجات الحرارة ، ولكن الواقع الذى نعرفه يخالف بين . الليل والنهار على مدار أيام السنة كما يخالف بين حرارة

---

(١) دائرة المعارف البريطانية .
يتألف الغلاف الجوى من مخلوط من الأزوت والأوكسجين وغازات أخرى .

الفصول ، وهذا ما حدا بالعلماء أن يفترضوا أن محور دوران الأرض حول نفسها يميل عن الخط العمودى بـ ٣٢½ درجة ، وهذا الفرض يفسر تفسيراً دقيقاً وملائماً اختلاف الليل والنهار من ناحية ، واختلاف الحرارة فى فصول السنة من ناحية أخرى.

الإنسان وشكل الأرض :

ولما كان الإغريق القدماء ، هم أول من تركوا لنا كتباً فى علم الطبيعة والجغرافيا الطبيعية ، فإنه يتبين منها أنهم اعتقدوا الأرض فى بادئ الأمر قرصاً مستديراً مركزه بلاد الإغريق ، وأن هذا القرص عائم على الماء كالسفينة . وقال البعض الآخر إنها جسم مسطح يحمله الهواء وهى لا تتحرك نتيجة حجمها الكبير واتساعها ، وهذا ما يعالل عدم سقوطها فى تيهور الفضاء . وكان فيثاغورس هو أول من قال بكروية الأرض وحركتها . وقد تابعه أرسطو على كروية الأرض ، حتى إذا وصلنا إلى أرسطرخس Aristracachos ، وجدناه يقول لنا ما نعتبره اليوم حقيقة علمية ثابتة ، من أن الأرض تدور حول محورها مرة فى كل ٢٤ ساعة ، وحول الشمس مرة فى كل عام ، وأن الشمس لا الأرض هى مركز الدوران ، وهى ثابتة فى مكانها وليست رؤيتنا لها متحركة إلا كما يرى المسافر الأشجار وأعلام الطريق وهى تندفع فى الاتجاه المضاد لسيره ، مع أن حقيقة الأمر أنها ثابتة وهو الذى يتحرك . وظل هذا الرأى سائدا ، حتى كان بطليموس الفلكى الإسكندرى الذى عاش فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وقد وافق الإغريق على كروية الأرض ، ولكنه نفى أن تكون الأرض متحركة وعزا الحركة إلى الشمس وأنها هى التى تدور حول الأرض.

وقد توصل الهنود بدورهم إلى كروية الأرض ودورانها ، فيقول لنا

« إريا بهاتا » أعظم علمائهم فى الفلك والرياضة : « إن عالم النجوم ثابت ، والأرض فى دورانها هى التى تحدث كل يوم ظهور الكواكب والنجوم من الشرق واختفائها فى الغرب »[1] .

على أن خليفة هذا العالم المشهور ، نقض هذا القول تأثراً فيما يبدو ببطليموس الفلكى ، فقال بثبوت الأرض ودوران الشمس[2] .

أما العرب الذين ورثوا الحضارات القديمة كما سوف نرى ، فقد سلموا جميعاً بكروية الأرض ، ولكنهم اختلفوا فى موضوع حركتها كما اختلف كل من سبقهم ، فنرى أبو ريحان البيرونى يناقش الرأيين دون أن يرجح أحدهما على الآخر فيقول :

« إن النظريتين ، نظرية الثبوت أو الحركة نظريتان متكافئتان بكلتيهما تتفسر الأرصاد الفلكية ، وإن من الصعوبة بمكان ترجيح إحداهما على الأخرى »[3] .

ولم يكن البيرونى إلا أحد حلقات العلم العربى الذى ازدهر منذ الفتح الإسلامى ، والتاريخ الإسلامى يسجل لنا فيما يسجل أن علماء المسلمين قد قاسوا محيط الكرة الأرضية بناء على أمر الخليفة المأمون ، وقسموا محيط الدائرة إلى ٣٦٥ درجة وقدروا الدرجة بـ ٧٦ ميلا وثلثى الميل وعلى ذلك فقد حسبوا محيط الكرة الأرضية على أنه ٢٠٤٠٠ ميل وهو ما يقرب من تقديرنا الحالى كثيراً ، كما قدروا قطر الكرة الأرضية بـ ٦٥٠٠ ميل وهو عند علماء اليوم ٧٩١٣ ميلا تقريباً[4] .

---

(١) قصة الحضارة — الجزء الثالث — ص ٢٣٦ .

(٢) قصة الحضارة — الجزء الثالث — ص ٢٣٦ .

(٣) الدكتور أحمد زكى — مع الله فى السماء — ص ٤٤ ، والعجيب أننا سنرى بعد قليل أن هذا هو نفس ما يقول به العلم النظرى الحديث فى الفلك . .

(٤) الدكتور أحمد زكى — مع الله فى السماء — ص ٤٢ .



ويقول الإمام فخر الدين الرازى فى تفسير قوله تعالى : « الذى جعل لكم الأرض فراشاً » : وقد استدل أقوام بهذه الآية على أن الأرض ليست كرة ، وهذا بعيد جداً لأن الكرة إذا عظمت جداً كانت القطعة منها كالسطح فى إمكان الاستقرار عليها . ثم انتهى من تفسيره بعد مناقشة طويلة إلى القول بأنه لا يشك فى كروية الأرض « إلا من لا تدبر له »[١] .

أما بالنسبة لدوران الأرض ، فقد رأينا ما قرره البيرونى بصدده ، وقد تكررت الإشارة إليه فى كتاب عضد الدين بن أحمد المتوفى سنة ٧٥١ هـ فى كتابه المواقف ، وتابعه على رأيه شارح المواقف على بن محمد الجرجانى المتوفى سنة ٨٩٦ هـ . وكان ممن تحدثوا عن دوران الأرض بهاء الدين العاملى فى رسالته تشريح الأفلاك[٢] .

أوربا المسيحية وشكل الأرض :

على أن الأوربيين فى العصور الوسطى ، قد تصوروا القول بكروية الأرض ودورانها ، أمراً يخالف العقيدة المسيحية ، فالأرض عندهم قرص مستدير مركزه بيت المقدس (حيث ولد المسيح) وهو طاف فوق الماء . حتى كان كوبرنيكس فى القرن السادس عشر فابتعث قول الإغريق القديم الذى قال به فيثاغورس وأرسطرخس من كروية الأرض ودورانها حول الشمس ، ولكنه ظل يكتم هذا الرأى طوال أربعين سنة ولم يسمح بطبع كتابه الذى يحتوى على هذا الرأى إلا قبيل وفاته ، ولو تأخرت هذه لوفاة قليلا لمات فوق المحرقة باعتباره كافراً وملحداً .

---

(١) فريد وجدى — دائرة معارف القرن العشرين — مادة أرض .

(٢) فريد وجدى — دائرة معارف القرن العشرين — مادة أرض .

حتى إذا تمكن جاليليو عام ١٦٠٩ من صنع المنظار المكبر (التلسكوب) لأول مرة ، استطاع بواسطته أن يجمع بعض الأدلة الحسية على دوران الأرض ، بالإضافة إلى البراهين الرياضية والحسابية البحتة التي قال بها كوبرنيكس . وكاد هذا القول يودى بجاليليو إلى المحرقة ، لولا أنه اعتذر عنه علناً وتاب وأناب ، وتعهد بكل ذلة ومسكنة أنه لن يعود لهذا الكفر ، وسيقف بالمرصاد لكل من تحدثه نفسه أن يردد هذا السخف والكفر والهذيان ، بل سيبادر بإبلاغ السلطات عنه[1] .

حقيقة مقررة :

وكروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس قد أصبحت اليوم من الحقائق العلمية الثابتة التي تدرس للأطفال ، ولم يعد إثباتها مسألة براهين رياضية أو منطقية بل مسألة واقع محسوس يمكن لكل إنسان أن يتحقق منه بنفسه .

وقد بدأت هذه التجارب المادية برحلة ماجلان فى القرن السادس عشر ، عند ما عادت إحدى سفنه الثلاث من تطوافها حول الأرض ، إلى ميناء القيام ، بالرغم من أنها ظلت تسير فى اتجاه الغرب دائماً . وإذا كانت هذه الرحلة حول الأرض قد استغرقت فى القرن السادس عشر ثلاث سنوات ، فقد أصبحت الطائرات النفاثة تدور حول الأرض فى أقل من ٢٤ ساعة ، بل إن سفن الفضاء الروسية والأمريكية على السواء قد أصبحت تدور حول الأرض فى ٩٠ دقيقة . وإذا كانت كروية الأرض قد أصبحت ترى بالعين المجردة من ركاب سفن الفضاء ، بل يسجلونها

---

(١) طالع بالتفصيل ، كل ما اشتملت عليه محاكمة جاليليو من طرائف ومهاترات فى كتاب برتراند راسل — النظرة العلمية — ص ٢٤ وما بعدها .

فى الصور ، فإن حركة الأرض ودورانها ، قد أصبحت تكاد تلمس باليد، حيث تقوم عمليات إطلاق سفن الفضاء وإعادتها سالمة إلى الأرض ، على أساس سرعة دوران الأرض حول نفسها ، ومدى سرعتها فى دورانها حول الشمس وانتقالها من مكان إلى آخر ، ويؤكد نجاح عمليات سفن الفضاء ووصولها إلى الأرض سالمة ، دقة هذا الحساب .

انفصال القمر عن الأرض :

وقد أكون استطردت طويلا فى التحدث عن كروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس ، وتاريخ نظرة الإنسان إلى هذه القضية ، ولكنى أحسب أن ذلك لازم ما دمنا نتحدث عن أمنا الأرض ، أو عن وطن الجنس الإنسانى .

ونعود إلى ما كنا بسبيله من استعراض تاريخ هذا الكوكب الذى نرتبط به . ولعل أعظم حادث فى تاريخ الكوكب الأرضى بعد انفصاله من الشمس ، إذا أخذنا بالرأى الذى يقول بذلك ، أو بعد دوران الأرض حول الشمس بفعل الجاذبية إن لم تكن قد انفصلت عنها ابتداء ، هو حادث انفصال القمر عن الأرض وتحوله إلى تابع يدور حولها ، كما تدور هى حول الشمس .

وانفصال القمر عن الأرض ، مسألة لا تفترق حولها الآراء كما تفترق حول انفصال الأرض عن الشمس ، فالعلماء المحدثون متفقون على انفصال القمر عن الأرض ، حتى ليحددوا الموضع الذى انفصل منه القمر عن الأرض ، وهو هذه الفجوة الضخمة التى تؤلف المحيط الهادى[1] وستشهد السنوات المقبلة عند ما يصل الإنسان إلى القمر ،

---

(١) الفلك العام — ص ١٩٤ .

ويكتشف سطحه ونقف على تركيبه الجيولوجى ، إذا كان هذا الرأى المجمع عليه سيتأكد ، أم أنه سينقض .

تطور الأرض ونشوء الحياة :

ومضت ملايين السنين تتلوها ملايين السنين ، وكبر عمر الأرض ، واستطال النهار ، وبدت الشمس أبعد عن الأرض ، وخفت بالتالى حرارتها ، وتباطأت سرعة القمر فى الدوران حول الأرض ، وقل هطول الأمطار وخفت حدة الأعاصير والرياح العاتية وزادت كمية المياه التى تملأ البحار والمحيطات ، فى الوقت الذى طفت فيه اليابسة وعلت فوق سطح الماء ، ومع ذلك فإن الكوكب الأرضى لم يكن قد عرف الحياة بعد ، فالبحار لا تزال خالية من كل مظاهر الجياة ، والصخور عقيمة مجدبة من كل أثر للحياة .

وتوالت الحقب على الأرض ، فى ترتيب زمنى أصبح بقدرة علماء العصر الحديث أن يتتبعوه ، مستخدمين ما أشرنا إليه من قبل وهو (الساعة الزمنية) حيث يحدد الإشعاع عمر الصخور المختلفة والمعادن بل الثلوج ، ويضعون لنا قائمة بأسماء الحقب المختلفة ويحددون أزمنتها ، وفى أى منها بدأت مظاهر الحياة فى صورها الأولى ، ثم المتطورة بعد ذلك . وغنى عن البيان أن ذلك كله ليس إلا على سبيل الفرض والتخمين . وإن كان فرضاً وتخميناً يستند إلى أسس وعناصر تجريبية متفق عليها بصفة عامة .

العصور الجيولوجية والدهور السحيقة :

١ ــ الدهر السحيق ــ ما قبل الكامبرى :

ويختلف العلماء فى تقدير بدايته ما بين ٤٠٠٠ آلاف مليون و ٢٠٠٠ مليون سنة ولكنهم يكادون يتفقون على مدة نهايته وهى ٥٠٠ مليون سنة .

وواضح أن هذا هو أطول الدهور الأرضية ، والقول على أن الأرض لم تعرف الحياة فى الجزء الأكبر من هذا الزمن ، أو بالأحرى ثلثى هذا الزمن . وقد تكون الحياة قد وجدت فى البحار فى الثلث الأخير ، ولكنها على كل حال لم تخلف وراءها أى أثر يمكن أن يدرك ، ولا غرابة فى ذلك ، فما لم يكن الكائن الحى قد وصل إلى درجة من التصلب بحيث تكون له قشرة أو هيكل عظمى ، فلا يمكن أن يترك وراءه أثراً فى الأحجار الرسوبية .

٢ — الدهر القديم (الباليوازى) :

ويبدأ من ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ وينتهى حوالى ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة. وبدخول تاريخ الأرض فى الدهر القديم، تتحدد معالم الأرض ، ويصبح كتابها أيسر فى المطالعة ، فباستطاعتنا أن نطالع فى الصخور الرسوبية من هذا العهد ، كيف طغى البحر على اليابسة ثم انحسر عنها مرات كثيرة ، تاركاً آثاره فى كل مرة على الصخور الرسوبية ، ونرى على صفحات هذه الصخور الحياة فى صورها الأولى البدائية مذ كانت كائنات بسيطة ، حتى الكائنات الأكثر تعقيداً . وفى هذا الدهر القديم نشأت الأسماك لأول مرة، وظهرت فى أواخره الحيوانات البرمائية أى التى تعيش فى الماء والأرض على السواء . وبدأت الحياة النباتية تزدهر فى المستنقعات والبحيرات وعلى شواطئ المياه الواطئة .

على أن الهضاب والتلال والسهول كلها ظلت عقيمة بغير حياة . لقد بدأت الحياة تتعلم كيف تتنفس ، ولكن جذورها ظلت فى المياه حيث نبتت ، ولذلك كان عليها دائماً أن تعود إلى الماء ، لتضع بيضها وتكثر نوعها .

٣ ــ الدهر الوسيط (الميزوزى) :

ويشمل الفترة من ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة حتى ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة وفى هذا العصر الوسيط الذى استغرق ما يقرب من مائة وثلاثين مليوناً من السنين ، وقعت الحوادث الجيولوجية العنيفة التى أدت إلى ظهور الجبال الشاهقة التى نعرفها اليوم كسلسلة جبال الروكى والأنديز فى أمريكا الشمالية والجنوبية . وفى هذا الدهر ظهرت الزواحف الأرضية بكل أنواعها بعد أن غطت الحشائش الضخمة العملاقة ظهر الأرض ، فكان حيوان الديناصور الجبار ، الذى كان ملك الأرض فى هذه الحقبة ، وقد كان طوله من الرأس حتى نهاية الذنب يبلغ ٨٤ قدماً ، وكانت هناك زواحف أخرى يزيد طولها على مائة قدم ، ومن هذه الزواحف تطور نوع من الطيور الجبارة .

ولأمر ما انقرضت هذه الكائنات الجبارة ، ولا يعرف السبب الذى أدى إلى انقراضها .

٤ ــ الدهر الحديث (السينوزى) :

ويبدأ هذا الدهر من ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة ويستمر حتى الآن . وقد كان المناخ فى أول هذا الدهر حاراً جداً ، ثم أخذ الجو فى البرودة (لسبب مجهول) حتى أصبح جليدياً فى آخره .

ويتحدث الجيولوجيون عن أربعة عصور جليدية ، يقع الأول منها منذ ٦٠٠,٠٠٠ سنة ووصل العصر الجليدى الرابع ذروته منذ ٥٠,٠٠٠ سنة .

وفى هذا الدهر الحديث انحسر البحر عن الجزء الأكبر من القارات كما نعرفها الآن ، وتكونت فيه جبال الهملايا والألب . وبدأت الأرض

تعرف نوعاً جديداً من الحيوانات ، لم تعد تقنع فى عملية إكثار النوع ، بوضع بيض ثم تتخلى عنه ، بل أصبحت تحتضن الجنين فى داخلها ، وتغذيه من دمها (داخل الرحم) حتى إذا خرج الجنين إلى الحياة ، أقبلت عليه الأم تغذيه بغذاء تفرزه من إحدى غددها وهى الثدى ، ومن هنا أطلق العلماء على هذا الطراز الجديد من الحيوانات اسم الحيوانات الثديية (نسبة إلى غدة الثدى) أو الحيوانات اللبونة (نسبة إلى اللبن الذى تغذى به) .

وليست الحيوانات الراقية التى تعيش حولنا والتى نعرفها جيداً ، ابتداء من الأرنب والقطة والشاة والبقرة والحصان والكلب ، حتى الأسد والنمر والفيل والغزال والقرد ، إلا فروعاً من هذه الحيوانات الثديية ، التى يطلق عليها علماء الحيوان اسم الحيوانات الراقية ، فالمشاهدة تدل على أن هذه الحيوانات تتمتع بقدر كبير من الفهم والإدراك وهذا ما يجعل الإنسان قادراً على استئناسها والاستفادة منها ، فإن هذا الاستئناس ما كان يمكن أن يتم لولا تحقق قدر من التفاهم بين الإنسان وبينها .

وتبلغ هذه الحيوانات الثديية ذروة رقيها فيما يسمى القردة العليا الغوريلا والأورانج تانج والشمبانزى ، حيث نرى لدى هذه القردة أول مظاهر الاجتماع ، إذ تعيش فى جماعات متجاورة ، يراقب بعضها بعضاً ، ويقلد بعضها بعضاً ، ويحذر بعضهم بعضاً من بعض الأخطار الوافدة . ويقول علماء التطور : إن الإنسان ليس سوى نوع من هذه القردة العليا ، وقبل أن نعرض لهذه القضية فلنمض فى متابعة تاريخ هذا الكوكب الأرضى وتطوراته حتى نصل إلى أيامنا هذه .

الأرض التى نعرفها :

نحن الآن عند خمسين ألف سنة مضت منذ الآن ، وقد أصبحت الكرة الأرضية أكثر ما تكون شبهاً بالصورة التى نراها عليها الآن فى



الخرائط والمصورات والكرات الأرضية .

فاليابسة قد ثبتت فى مكانها نهائيا ولم تعد تتحرك ، بعد أن برزت العناصر التى تقوم عليها نهائيا .

وملأت المياه الفجوات والشقوق التى فصلت نهائيا بين القارات الست ، فامتلأ حوض البحر المتوسط الذى فصل أوربا عن أفريقيا ، وقد كانتا متصلتين .

وامتلأ الشق الذى نطلق عليه اسم البحر الأحمر فاصلا بين آسيا وأفريقيا . وغمرت المياه الجسر الأرضى الذى كان يربط آسيا بالأمريكتين محولا إياه إلى ممر بهرنج .

وجاء الإنسان ، وبدأ يترك آثاره على أديم الأرض ، وبدأ يطلق شتى الأسماء على كل ما يقع عليه بصره ، وبدأ يتجول فيما يحيط به ، ويتعلم ويزيد من معارفه ، ويؤلف الجماعات والقبائل والأمم والدول .

وكان أول ما عرف من سطح الكرة الأرضية بتفصيل دقيق ، هو هذا الجزء الذى يحيط بالبحر الأبيض المتوسط ، وقد سمى متوسطاً لأنه كان يتوسط العالم كما عرفه إنسان ذلك التاريخ . ولا شك أن معرفة الإنسان لجنوب آسيا قد سبقت ذلك ، فمن جنوب آسيا سار الإنسان دائماً صوب الشمال نحو شمالها الغربى ونحو شمال أفريقيا وجنوب أوربا ، أما شمال أوربا فقد كان لا يزال رازحاً تحت عبء عصر الجليد الرابع ، ولم يكن باستطاعة الإنسان أن يحيا فى دنيا الجليد .

وقد استطاع الإنسان منذ عصر مبكر أن يصل إلى الأمريكتين ، ولكن السبل سرعان ما انقطعت بين سكان هذا القسم من العالم ، والعالم القديم ، فظلا مجهولين لبعضيهما ، حتى أعاد خريستوف كولبس اكتشافهما عام

١٤٩٢ [١] ، ثم توالت الاكتشافات لباقى أجزاء العالم . ولم يحل القرن العشرون حتى كانت خريطة العالم المتداولة لا يوجد فيها شبر واحد لم تطأه قدم الإنسان ، فهو لم يسمح لأعتى القمم أن تتحدى قوة إرادته فتسلقها [٢] . أو أعمق نقطة فى المحيط لا يصل إليها بآلاته وأدواته [٣] .

وقد قسم الإنسان الكرة الأرضية إلى خطوط بالطول وأخرى بالعرض يبلغ عدد كل منها ٣٦٠ بقدر درجات الدائرة ، وتبدأ خطوط العرض من خط الاستواء (صفر) وتتدرج صعوداً حتى تصل إلى القطبين فى الشمال والجنوب . كما تبدأ خطوط الطول من جرينيتش بالقرب من لندن (صفر) وتتدرج بعد ذلك حتى ١٨٠ درجة شرقاً وغرباً. ومقدار درجه الطول الواحدة ٦٩,٢ ميلا وكل درجة من هذه الدرجات تمثل ٤ دقائق من الناحية الزمنية . ولم تعد ثمة بقعة على ظهر الأرض لا يستطيع الإنسان أن يحدد مكانها على الخريطة ، أو أن يصل إليها بشتى أنواع المواصلات التى تسير فوق الماء وتحت الماء، أو على الأرض أو على متن الهواء . وتبلغ مساحة سطح الكرة الأرضية ١٩٦,٨٣٦,٠٠٠ ميل تقريباً أو ٥٠٩,٦١٠,٠٠٠ كيلومتر مربع تقريباً أو ١٢٥,٩٧٥,٠٤٠,٠٠٠ فدان .

ولا تزيد مساحة اليابسة على قدر يتراوح بين الثلث والربع من هذه المساحة أى ٥٥,١٦٨,٠٠٠ ميل .

---

(١) أحدث الآراء التى تبنتها بعض الجامعات الأمريكية ، أن النرويجيين (الفايكنج) قد وصلوا إلى أمريكا الشمالية قبل كولمبس .

(٢) قمة جبال هملايا – ٢٩,٠٢٨ قدما .

(٣) أعمق نقطة فى المحيط الهادى ٣٥٠٠٠ قدم تحت سطح الماء .

أما البحار والمحيطات فتؤلف الجزء الباقى موزعة على الوجه التالى :

المحيط الهادى	٦٨,٦٣٤,٠٠٠ ميل
المحيط الأطلسى	٤١,٣٢٢,٠٠٠ ميل
المحيط الهندى	٢٨,٣٥٠,٠٠٠ ميل

وباقى المحيطات والبحار الجزء الباقى . والبحر الأبيض وهو أكبر بحار العالم تبلغ مساحته ١,١٤٥,٠٠٠ ميل مربع .

أما أصغر بحار العالم فهو بحر البلطيق فى أوربا ، وتبلغ مساحته ١٦٠,٠٠٠ ميل .وتبلغ مساحة الماء العذب فوق اليابسة فى صورة بحيرات وأنهار ١,٠٠٠,٠٠٠ ميل مربع . وأطول أنهار العالم هو نهر النيل ويقع فى أفريقيا ويبلغ طوله ٤٠٠٠ ميل ويليه نهر المسيسبى والمسورى معاً ٣٩٨٨ ميلا .

مساحة القارات :

أما القارات فمساحاتها على الوجه التالى (١) :

آسيا	١٧,٠٠٠,٠٠٠ ميل تقريباً
أفريقيا	١١,٥٠٠,٠٠٠ ميل تقريباً
أمريكا الشمالية والوسطى	٩,٣٥٥,٠٠٠ ميل تقريباً
أمريكا الجنوبية	٦,٨٠٠,٠٠٠ ميل تقريباً
أوربا	٣,٧٥٠,٠٠٠ ميل تقريباً
الأقيانوسية	٤,٠٠٠,٠٠٠ ميل تقريباً
المنطقة القطبية الجنوبية	٦,٢٠٥,٠٠٠ ميل تقريباً

(١) هذه الأرقام تختلف حسب اختلاف المراجع ، وما يعد جزءاً من القارة وما لا يعد .

والاتحاد السوفييتي هو أوسع دول الأرض مساحة إذ تبلغ مساحته بمفرده ٨,٦٤٥,٠٠٠ ميل، تليه كندا ٣,٨٥١,٠٠٠ ميل تقريباً ، فالصين فالولايات المتحدة الأمريكية فالبرازيل فأستراليا فالهند فالأرجنتين فالسودان ٩٦٧,٠٠٠ ميل تقريباً فالكونغو فالمكسيك .

ويبلغ عدد سكان العالم فى الوقت الحاضر ٣,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مليون نسمة[1] .

وأكثر بلاد الدنيا سكاناً هي الصين ٧٠٠,٠٠٠,٠٠٠ وتليها الهند ٤٤٠,٠٠٠,٠٠٠ فالاتحاد السوفيتى ٢٦٤,٠٠٠,٠٠٠ فالولايات المتحدة الأمريكية ١٩٢,٠٠٠,٠٠٠ ، فإندونيسيا ٩٦,٠٠٠,٠٠٠ فاليابان ٩٤,٠٠٠,٠٠٠ فألمانيا بقسميها ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ فإنجلترا ٥٢,٠٠٠,٠٠٠ فإيطاليا ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ ففرنسا ٤٥,٠٠٠,٠٠٠

انعدام المسافات والحواجز :

ولقد انهارت الحواجز التى كانت تفرق الإنسان عن أخيه الإنسان ، وأصبحت المحيطات تقطع فى بضع ساعات . ولم يعد هناك ركن من أركان العالم، سواء على سطح الأرض أو تحت الماء أو فى طبقات الجو القريب لا يصل إليه الإنسان بعلمه وآلاته ، فأصبح يعلم ما يجرى فى أرجاء الكوكب الأرضى إن لم يكن ساعة حدوثه فبعد ذلك بلحظات ، أى بمقدار إبراق الخبر وإذاعته التى تنتقل بسرعة الضوء .

وهكذا أصبح الكوكب الأرضى كله يؤلف وحدة جغرافية واحدة بالنسبة لكل من يقيم على ظهره من بنى الإنسان ، وقد حانت الساعة

---

(١) يتزايد هذا الرقم بمعدل ٥٠ مليوناً كل عام .

لنعرف صلة الإنسان بهذا الكوكب الأرضى ، وهو ما يعود بنا للتحدث عن نشأة الحياة .

نشأة الحياة وعلاقتها بالأرض :

رأينا فيما مرّ بنا كيف يحاول الجيولوجيون ، أن يقدروا للأرض عمراً من خلال قياس عمر الصخور التى تتألف منها القشرة الأرضية ، وقد قسموا عمر الأرض إلى دهور مختلفة ، قدروا لكل دهر منها عمراً خاصا به ، وقد حاولوا أن يجعلوا لكل دهر من هذه الدهور خصائص تميزه عما سبقه أو لحقه من دهور ، وقد رأينا أنهم أطلقوا على الفترة القريبة من عمر الأرض اسم « الدهر السينوزى » وقالوا لنا إن صخور هذا الدهر بدأت تحوى آثار الحيوانات الثديية ، وكلما مرّ الزمن تطورت الثدييات حتى وصلت إلى القردة العليا . حتى إذا كانت الصخور التى لا يزيد عمرها على ٥٠ ألف سنة ، بدأنا نجد آثار وحفريات ما يمكن اعتباره شبيه الإنسان أو الإنسان الأول .

وعندنا أن هذا الذى انتهى إليه العلم الحديث ، بعد الجهدوالاستقراء والملاحظة والتجريب ، لا جديد فيه بالنسبة للإنسان فى أى عصر من العصور ، فالرابطة بين الحياة فى شتى صورها وأشكالها من ناحية ، وبين الأرض من ناحية أخرى ، هى ظاهرة مؤكدة لم تغب عن أى إنسان . تحدثت عنها أساطيره ، وأحلامه وخيالاته ، بل تاريخه ومعارفه ، فالإنسان لم يتردد فى أى وقت من الأوقات من تصور نفسه من سلالة الحيوانات حتى لقد عبد الحيوانات فى شتى صورها وأشكالها باعتبارها الأصل الذى منه جاء ، وقدّس كل ما يحيط به من كائنات حية وغير حية ، قدّس الأنهار والجبال والأشجار ، ولم يفته فى أى لحظة العلاقة الوثيقة بين

الإنسان وكل ما يحيط به . ولا عجب فى هذا الشعور والإحساس فحياتنا اليومية تؤكده وتقرره ، فما من كائن حى إلا يولد صغيراً ثم يمتد ويكبر ويزيد فى الحجم ، وليس هذا الحجم إلا متحصلات الأرض ، من هواء وماء وتراب بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، من خلال النباتات والحيوانات التى هى بدورها من نتاج الأرض . ولا يكاد الإنسان يموت حتى يرى بالعين المجردة أنه يتحول إلى تراب الأرض ، ويصبح بدوره غذاء طيباً لهوام الأرض وحشراتها ونباتاتها .

فالدورة إذن بين الحياة وعلى رأسها الإنسان ، وبين كل ما يحيط بها هى ظاهرة محسوسة ملموسة لكل ذى عينين وعقل يفسر ما ترى العينان.

وإذا كان القرآن الكريم يمثل ذروة ما وصل إليه الإنسان من معارف عن طريق الوحى والإلهام فإنه يقرر هذه الحقيقة فى وضوح لا مزيد عليه ، إذ يتحدث عن خلق الحى من الميت . وخلق الميت من الحى .

« يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون » .

كما يتحدث القرآن عن علاقة الماء بالحياة ، مقرراً أن الماء هو أصل الحياة :

« وجعلنا من الماء كل شىء حى » ، حتى إذا وصل إلى الإنسان زاد الأمر تفصيلا فأضاف إلى الماء تراب الأرض أى ما نسميه الطين « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » .

ويعجب الإنسان ، كيف ينتهى العلم بعد أن يشرق ويغرب إلى استعمال نفس العبارات التى حاول أن ينكرها فى بادئ الأمر ويتمرد عليها باعتبارها لا تقوم على أساس علمى تجريبى ، فترى واحداً من أعظم علماء الحياة فى أمريكا (لورنس هندرسون) يقول لنا : «لا بد أن

ظهور الحياة بدأ أول ما بدأ فى أحد مجارى الطين الدافئ أو بين طيات زبد هذا الطين ورغاويه »[١] .

أما كيف نشأت الحياة من غير الحياة ، فذلك لا يزال سرا مستعصياً على عقول أعتى العلماء .

وقد حدث أن اجتمع مئات من العلماء فى مؤتمر دولى لعلوم البحار فى شهر أغسطس سنة ١٩٥٩ فى مدينة نيويورك ، وخصصوا قسما كبيراً من نشاط المؤتمر لبحث نشأة الحياة ، واشترك فى أعمال المؤتمر أعظم علماء الروس المشتغلين بمعرفة أصل الحياة ، والذى نسب إليه أكثر من مرة أنه أوشك أن يكتشف سر الحياة وهو العلامة « أوبارين » فلما جاء دوره فى التحدث إلى المؤتمر قال للمؤتمرين هذا الحكم القاطع :

« إن جميع المحاولات التى أجريت لتوليد الحياة من المواد غير العضوية تحت ظروف طبيعية أو فى المعمل باءت بالفشل »[٢] .

وستمضى الأجيال تلو الأجيال باحثة عن السر الرهيب .

الفكر الإنسانى :

وكما يقف علماء الحياة ، عاجزين عن إدراك كيفية نشأة الحياة من المادة الجامدة ، ويواجهون بفجوة كبيرة لا يعرفون كيف يسدونها ، ولا يملكون إلا أن يسلموا بعجزهم كما فعل الإنسان على مر العصور ، فكذلك الشأن بالنسبة لعقل الإنسان . إذ يقف علماء التطور حيارى إزاء الفكر الإنسانى ، فما أسهل عليهم أن يتبعوا مراحل التطور وعملية النشوء والارتقاء ، من

---

(١) انظر كتاب الطاقة الإنسانية للمؤلف ص ١٧٨ .

(٢) الحياة ونشأتها — أنور عبد العليم ص ١١٢ .

الأميب حتى القردة العليا ، فهذه من تلك لها خصائص واحدة ، وتعمل كلها بغريزة الحياة الثابتة التى لا تتغير أو تتبدل ، فأرق حيوان ، كأدنى حيوان ، يقوم بنفس الحركات التى كان أسلافه يقومون بها منذ ملايين وملايين السنين ، بنى عشه كما كانوا يبنون ، ويضع بيضه أو يربى وليده كما كانوا يفعلون . لا فارق بين الحشرة وبين الفيل . حتى إذا جئنا للإنسان فى أول صوره وأكثرها بدائية وجدنا عنده الاختلاف الجذرى مع سائر الكائنات الحية ، وجدنا عنده العقل الذى جعله ينتج اللغة ويتكلم ويتعلم كل يوم ما لم يكن يعلم ، ويصبح له فى كل يوم أساليب غير الأساليب وحاجات غير الحاجات ، ونجد عنده شعراً وموسيقى وفلسفة وديناً ، ومذاهب وعقائد ، وملكيات وجمهوريات ، وأنظمة لا تفتأ تتغير يوماً بعد يوم ، واختراعات واكتشافات تجعله فى كل يوم يقدر على ما لم يكن يقدر عليه قبلا . . . وهكذا يقف العلماء المحدثون مرة أخرى ، كما وقف الإنسان فى كل عصر من العصور حائرين مبهوتين أمام هذا السر الرهيب ، سر العقل الإنسانى وطبيعته ، فيقول ألكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل فى العلوم الطبيعية :

« ما هو الفكر ، ذلك الكائن العجيب الذى يعيش فى أعماق ذاتنا دون أن يستهلك أى قدر قابل للقياس من النشاط الكيمائى ؟ هل يتصل بأشكال النشاط المعروفة ؟ ألا يمكن أن يكون هو منظم الكون ، وأنه بالرغم من تجاهل الأطباء له أهم من الضوء ؟ أهو نتاج الخلايا (المخية) كما ينتج البنكرياس الأنسولين ، والكبد الصفراء ، وهل يحتوى على نوع من النشاط يختلف عن ذلك الذى يدرسه الأطباء ؟ أيعبر عن نفسه بقوانين أخرى وتولده خلايا الغشاء المخى ، أم يجب اعتباره كائناً غير مادى يوجد خارج الفراغ والزمن ، خارج أبعاد العالم الكونى ، ويدخل فى مخنا بطريقة مجهولة لنا ؟! » .

وثمة إمام آخر من أئمة علماء الطبيعة الماديين وهو شرنجتون لا يقل بدوره فى إعلان حيرته عن كاريل إذ يقول :

« لقد أصبح بقدرة العلم الطبيعى أن يفسر الحياة باعتبارها تنفساً وحركة ونمواً وتوالداً وتحليلا للأغذية فى الأنسجة . . . إلخ ذلك أنه لا يوجد شىء من هذه الظواهر لا يقع تحت سلطان العلم ، إنها كيمائيات وطبيعة ، أما هذا الشىء الآخر المصاحب للحياة وهو الفكر ، فإنه يهرب من دائرة العلم الطبيعى ويظل بعيداً عنه ، حتى لقد بدأ العلم الطبيعى يتجاهله باعتباره شيئاً يخرج عن دائرة بصره ، وبهذا نشأ فارق أساسى بين الحياة والعقل ، فالحياة موضوع للكيمياء والطبيعة ، أما العقل فيهرب منها ، بحيث يمكن تلخيص الإنسان فى أنه يتألف من طاقة وعقل » ، ويهرب شرنجتون من أن يقول شيئاً عن ماهية هذا العقل ولا مصدره [1] .

وهكذا ينتهى العلم المادى التجريبى ، إلى ما انتهى إليه الإنسان فى كل عصر وزمان ومكان ، من جهله سر الحياة ، وسر العقل الإنسانى .

على أنه أيا كانت حقيقة هذا السر ، فالأمر الواقع الملموس الذى لم يمار فيه البشر فى أى يوم من الأيام ، هو ما ذكرناه من قبل ، أن الأرض هى مصدر هذه الحياة ، وأن الإنسان ابن هذه الأرض . هى الأصل الذى جاء منه ، هى مسقط رأسه ، وهى مدرجه ومنشؤه وملعبه وهى مصدر معاشه وقوام حياته ، وهى فى نهاية الأمر ، غايته ومثواه ومستقره الأخير ، لا يختلف فى ذلك إنسان عن إنسان ، أيا كان مولده ، فى الشمال أو الجنوب ، فى الشرق أو الغرب . فى قمم الجبال أو عند منحدر الوديان ، على شواطئ البحار أو فى أعماق الصحراء ، أبيض كان أو أسود أو أحمر أو أصفر .

---

(١) الطاقة الإنسانية – للمؤلف .

وليس وراء ذلك جامع يجمع بين أفراد البشر على السواء ، بل لا يوجد ما يسوى بين البشر ولا يشذ فيه إنسان عن إنسان ، سوى هذه العلاقة بينه وبين الأرض وعودته إلى أحضانها . فهى الأم والبشر أبناؤها ، كذلك نظر لها الإنسان دائماً ، فعبدها وقدسها ، حتى إذا أدرك أنها من خلق كائن أعلى ، ظل محتفظاً لها فى لغته بلفظ الأمومة والأنوثة ، إشارة إلى هذه الرابطة الوثيقة .

وإذا كان علماء الاجتماع والسياسة ، يشترطون لقيام الأمة أن يكون لها أرض واحدة تعيش عليها ، فإن هذا الشرط لا يتحقق إلا بالنسبة لبنى البشر أجمعين .

والكوكب الأرضى الذى يؤلف وحدة مستقلة قائمة بذاتها تختلف عن بقية الكواكب الأخرى حقيق أن يلقب بالكوكب الإنسانى ، تمييزاً له عن سائر الكواكب الأخرى ، التى إن صح فرضاً أن بها حياة ، فالأرجح أنها حياة غير إنسانية .

الفصل الثانى

الجنس الإنسانى ووحدته

التوراة وقصة الخلق — الاستعلاء الجنسى فى العصر الحديث — مباحث علم الأجناس — المجموعة البيضاء — المجموعة الزنجية — المجموعة المغولية — قانون ماندل وفصائل الدم — مؤتمر عالمى للأجناس البشرية — هتلر والنازية — جنس إنسانى واحد — زنوج أمريكا — زنوج أفريقيا — العلماء يذيعون بياناً نهائيا بوحدة الجنس البشرى .

التوراة وقصة الخلق :

لم تكن وحدة الجنس البشرى موضع شك لدى البشر فى أى عصر من العصور الموغلة فى القدم ، فالأصل الواحد المشترك لجميع الآدميين كان يعتبر دائماً حقيقة واحدة ، فهم جميعاً قد انحدروا من الشمس أو السماء أو هذا الجبل أو هذا الحيوان ، أو هذا الجد المعين ، أو من سلالة هذا الإله .

وتصور التوراة التى تعتبر أقدم كتاب متداول بين البشر تصدى لوصف عملية الخلق وتاريخ الإنسان الأول ، وحدة الجنس البشرى ، فالله بعد أن خلق السموات والأرض ، وبعد أن خلق الماء والأسماك والزواحف والطيور ثم حيوانات الأرض ، قضى أن يخلق الإنسان [1] : « فصنع الله وحوش الأرض بحسب أصنافها والبهائم بحسب أصنافها ، وكل دابات الأرض بحسب أصنافها ، ورأى الله أن ذلك حسن . وقال الله لنصنع الإنسان على صورتنا ومثالنا وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الأرض وكل الدابات الدابة على الأرض . فخلق الله الإنسان على صورته » .

« وأن الرب الإله جبل الإنسان تراباً من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار الإنسان نفساً حية » [2] .

---

(١) هذا الترتيب فى خلق الكائنات ، هو ما يقول به علم الأحياء الحديث ، فالحياة نشأت فى الماء ، ثم كانت الأسماك فالزواحف فالحيوانات .

(٢) سفر التكوين — الفصل الأول والثانى .



وبعد أن خلق الله آدم وأراد أن يخلق له شريكة من جنسه « أوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام فاستل أحد أضلاعه وسد مكانها بلحم ، وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وأتى بها إلى آدم، فقال آدم هذه هى المرأة عظم من عظامى ولحم من لحمى هذه تسمى امرأة ، لأنها من امرئ أخذت ، ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته فيصيران جسداً واحداً »[1] .

وعرف آدم حواء امرأته فحملت وولدت قابيل فقالت قد رزقت ولداً من عند الرب ، ثم عادت فولدت أخاه هابيل ، ثم ولدت له شيثاً ، ثم جاءته ببنات وتزوج البنون البنات ، فكثروا ونموا حتى جاء نوح وفى أيامه وقع الطوفان الذى أغرق كل الأحياء على الأرض إلا الذين أخذهم نوح فى سفينته ، وبعد ذهاب الطوفان وعودة نوح ومن معه من الحيوانات والدواب إلى الأرض ، رزق نوح أولاداً ثلاثة سام وحام ويافث ، ومن الثلاثة تفرع البشر الذين يملأون الدنيا وهم جميعاً أبناء عمومة يرجعون إلى جد واحد هو نوح ومن قبله آدم أبو البشر وحواء أمهم .

يافث ـــ المغول :

فأما يافث فهو أبو الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج أو بالأحرى ما يسمون فى التاريخ باسم المغول .

---

(١) سفر التكوين – فصل ٢ – توحى هذه القصة إلى أن خلق حواء جاء عن طريق الانفصال من آدم ، لا عن طريق الخلق المستقل ، وهذا يماثل ما يقول به علم الحياة من أن الأحياء البدائية تتكاثر عن طريق الانفصال .

سام ــ العرب والروم والفرس :

وأما سام فهو الجد لشعوب العرب والروم والفرس أو من تسميهم التوراة ــ عيلام وأشور ولود وآرام .

حام ــ السودان والبربر :

وأما الابن الثالث حام فهو والد القبط والأحباش والسودان والبربر أو من نسميهم فى العصر الحديث باسم الزنوج ، أو من تسميهم التوراة ، كوش ومصرافيم وفوط وكنعان. وتأبى التوراة بعد أن تعدد هذه التفرعات إلا أن تذكر مرة أخرى بالأصل المشترك فتقول :

« هؤلاء هم عشائر بنى نوح بمواليدهم وأممهم ، ومنهم تفرقت الأمم فى الأرض بعد الطوفان . وكانت الأرض كلها واحدة وكلاماً واحداً»[1] .

وسنرى كيف أن هذا التقسيم الثلاثى للأصل الإنسانى المشترك هو الذى سينتهى إليه العلم الحديث فى خاتمة المطاف. . . بل سنرى كيف تنتهى الأبحاث التجريبية المعملية إلى إثبات وحدة الجنس البشرى .

والحق أن هذه الواقعة الثابتة ، مسألة تكاد ترقى إلى مستوى البديهيات التى لا تحتاج إلى برهان ، فإذا كان سكان العالم اليوم قد بدءوا يتجاوزون الثلاثة آلاف مليون ، فإن هذا العدد الضخم هو سلالة العدد الأقل الذى كان يسكن الكرة الأرضية ، ومنذ سبع وستين سنة فقط أى عام ١٩٠٠ كان عدد سكان العالم ١٥٠٠ مليون أى نصف القدر الحالى ، وهذا العدد الضخم بدوره قد انحدر من عدد أقل فأقل وهكذا ، حتى نرى أنفسنا فى نهاية الأمر أمام بداية واحدة للإنسان، أو أسرة واحدة :

---

(١) سفر التكوين ــ الفصلان العاشر والحادى عشر .

ذكر وأنثى كانا هما أول آدميين حقيقيين تتوافر فيهما صفات الإنسان ، أطلقت عليهما التوراة اسم آدم وحواء .

القرآن ووحدة الجنس البشرى :

وقد صوّر القرآن الكريم هذه البداية الواحدة وتفرع البشرية وتسلسلها من هذا الأصل بقوله :

«يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً » [1] .

وما أروع القرآن الذى يذكر الإنسان بوحدة الأصل ، داعياً إلى المحبة والترابط بين أفراد الجنس البشرى باعتبارهم جميعاً ذوى رحم واحدة ، أى أنهم أبناء أم واحدة فى خاتمة المطاف .

تنكر الشعوب لهذه الحقيقة :

ومع وضوح هذه الحقيقة وثبوتها ، فما أكثر ما تنكر لها بنو البشر فى مختلف العصور وتجاهلوها وأهملوها عامدين ، مدعين أن الأجناس البشرية درجات وطبقات يعلو بعضها بعضاً . . . وكان اليهود أنفسهم فى مقدمة المؤمنين بهذه الفكرة ، فهم وحدهم أى (بنى إسرائيل) هم الناس المفضلون المعتبرون عند الله ، أما بقية البشر فلا قدر لهم ولا قيمة عند الله ،

---

(١) سورة النساء ١ .

زاعمين أن الرب قد عقد اتفاقية مع جدهم إبراهيم ، أن يختصهم من دون العالمين ببركاته ونعمائه فى مقابل أن يعبدوه ويكونوا شعبه المختار .

ولا شك أن بنى إسرائيل قد أخذوا هذه الفكرة من المصريين الذين عاشوا بين ظهرانيهم بضع قرون ، فقد كان المصريون القدماء ، يتصورون أنفسهم هم وحدهم الناس ، وأنهم أبناء الشمس وشعب السماء وشعب الإله ، وأنهم صورة من ربهم الأكبر ، فقد تشكلوا من لحمه ، وخلقوا من عينيه ، ونزلوا من دموعه [١] .

ومثل هذا التصوير نراه عند الإغريق ، فهم بدورهم ، المتمدنون من دون العالمين ، ومن عداهم فهم برابرة ومتوحشون ، لا تسرى عليهم قوانين الإغريق ، ولا يعاملون بنفس المعاملة سواء فى حالتى السلم أم الحرب . ومن المؤسف أننا نجد أثر هذه الفكرة عند أرسطو ذلك الرجل العظيم ذى العقل الجبار ، والرؤية العميقة ، فهو يقول لنا إن الطبيعة قد خلقت جنسين من البشر ، أحدهما الجنس الحر ، والثانى الجنس العبد والرقيق ، ولا سبيل لإقرار السلام بين الجنسين إلا بأن يستسلم العبيد لمصيرهم ويدركوا أن ذلك قدر مقدور قد فرضته الطبيعة عليهم [٢] .

وعلى هذا القول الخاطئ من أقوال أرسطو ، استند دائماً دعاة التمييز العنصرى وما زالوا يستندون حتى الآن ، ويتخذون من هذه الفكرة الزائفة الأساس لموقفهم العدوانى .

واستمرت هذه البدعة عند الرومان ، فأبناء روما هم وحدهم من دون العالمين ، من يتمتعون بحقوق الإنسان الحر الكامل ، أما بقية الناس

---

(١) الدكتور عبد العزيز صالح — حضارة مصر القديمة وآثارها — ص١٣ .

(٢) دائرة المعارف للعلوم الاجتماعية — مادة — جنس .

فإما عبيد أرقاء ، أو أجانب يخضعون لقانون خاص بهم دون قانون المدينة .

وكان الحال فى الشرق مثل ما فى الغرب ، فالصينيون ، اختصوا أنفسهم بالتمدن والحضارة ومن عداهم خارج حظيرتها ، ولقد كان من الطريف أن أول سفير بريطانى ذهب فى أواخر القرن الثامن عشر ليمثل بلاده فى بلاط أباطرة المانشو كان عليه أن يركب فى ذهابه إلى الإمبراطور زورقاً ركب على ساريته لافتة كبيرة كتب عليها « أحد البرابرة الحمر يحمل الجزية للإمبراطور » وبغير هذا السبيل ما كان له أن يمثل فى حضرة إمبراطور الصين [1] .

هداة البشر ونبى الإنسانية محمد :

على أن الإنسانية أخرجت دائما من بين صفوفها ، نجوما وأعلاماً من بنى الإنسان ، رفضوا فكرة اختلاف الأجناس وبشروا بوحدة الجنس الإنسانى .

على أن الذى لا جدال فيه ، أن الرجل الذى رفع لواء هذا المبدأ إلى الذروة وأعطاه كل قوته فى النظر والتطبيق هو محمد بن عبد الله (صلعم) مما أهله ليكون نبى الإنسانية بحق ، حيث كان ينادى بنداء القرآن :

« يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ومن كلماته المشهورة وأحاديثه الخالدة : كلكم لآدم وآدم من تراب . أو قوله : لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

---

(١) حياة ماوتسى تونج — روى ماك جريجور ، ترجمة حسين الحوت .

ولم تكن هذه مجرد دعوة نظرية خيالية دعا إليها القرآن وحضت عليها تعاليم الإسلام ، بل إن الدولة والحضارة الإسلامية قامتا من أساسهما على هذه الفكرة . فكان صحابة الرسول المقربون يجمعون العربى إلى جوار صهيب الرومى وسلمان الفارسى ، وبلال الحبشى ، بين الحر والعبد بغير تفرقة أو تمييز ، وكثيراً ما أمر الرسول زيد بن حارثة الذى كان رقيقاً ، على أقطاب قريش وسادتها ، فلم يجدوا فى ذلك غضاً من كرامتهم أو حرجاً فى أنفسهم وهم الذين كانوا فى الجاهلية لا يعتزون بشىء قدر اعتزازهم بالأحساب والأنساب .

وعلى الرغم من أن روح المسيحية تقوم على هذه الفكرة فى المساواة بين البشر وسائر الأجناس ، فالرب هو الأب وكل من آمن بالمسيح أصبح من أبنائه وأحبائه بل إن جوهر الربوبية كله هو الحب فالله محبة ، ومع ذلك لم تستطع المسيحية بعد أن أصبحت الدين الرسمى للدولة الرومانية أن ترتفع إلى مستوى المناداة بالأخوة البشرية (١) .

ولم يختف الحديث عن الجنس كعنصر مميز بين البشر ، إلا بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية ، وتوالى القرون على أوربا المسيحية ، وإن كان الاستعلاء بالإيمان المسيحى قد حل محل الاستعلاء الجنسى ، فالمسيحيون هم وحدهم البشر والناس ، ومن لم يكن مسيحياً فهو من سقط المتاع ، وهو غير جدير بالحياة نفسها .

---

(١) تقول دائرة معارف العلوم الاجتماعية :

إن الإسلام من الناحية العقائدية ومن الناحية الواقعية لم يعرف حاجز اللون ، وهو ما يفسر سرعة انتشاره فى أفريقيا ، فى حين أن المسيحية لم تستطع أن تنهض إلى مستوى دعوتها المسيحية .

الاستعلاء الجنسى فى العصر الحديث :

حتى إذا كان العصر الحديث ، عصر الاستكشافات والبخار والاستعمار ، حيث ضعفت الروح الدينية ، وحل محلها الإيمان بالعلم والتفوق المادى ، بدأ الاستعلاء الجنسى يأخذ قوة وشكلا جديدين . بمحاولة تأصيل القضية وإرسائها على قواعد وأصول وحقائق علمية ، فنشأ ما يسمى بعلم الأجناس Anthropolgy وبدأت دراسات هذا العلم ومباحثه تكون أساس العبارات التى بدأت تتردد عن « سيادة الرجل الأبيض» وعن« انحطاط الجنس الأسود» وعن«خبث الجنس الأصفر» .

واستحل المستعمرون البيض لأنفسهم التصرف فى أقدار بقية الأجناس بما فى ذلك إبادتهم إذا لزم الأمر .

وكان الإسبان سباقين فى هذا الطريق ، فقد هون لهم مفكروهم وعلماؤهم ، إساءة معاملة الهنود من سكان أمريكا الجنوبية الأصليين ، وسوغوا لهم معاملتهم معاملة غير إنسانية على أساس أنهم من أصل غير إنسانى [١] .

وفعلت العناصر الأوربية الأخرى التى هاجرت إلى أمريكا الشمالية ، مثل فعل الإسبان ، فحصروا كل همهم فى ضغط الهنود الحمر وإجلائهم عن أراضيهم ثم قتلهم بالجملة وإبادتهم ، باعتبارهم جنساً غير قابل للتمدن والحضارة لأنهم أقرب إلى الحيوان .

وكذلك عمد البيض الذين نزحوا إلى أستراليا ، حيث عملوا على إبادة السكان الأصليين ، وإذا كان لا يزال من هؤلاء السكان بقايا حتى الآن

---

(١) دائرة المعارف البريطانية مادة — جنس .

فى قارة أستراليا ، فما ذلك إلا لأن أيدى البيض لم تصل إليهم لصعوبة المواصلات فى المرحلة الأولى ، ولكن البيض نجحوا فى استئصال شأفة سكان جزيرة تسمانيا بحيث لم يبق منهم إنسان واحد ، وأصبح يشار إليهم باسم « الجنس الذى انقرض » [1] .

وقد أعطت الداروينية ، التى تقوم على فكرة التطور من خلال « الانتخاب الطبيعى » وأن الحياة صراع دائم بين الأحياء ينتصر فيه الأقوى والأصلح ، الأساس العلمى لأمثال هذه الحركات فما دام الإنسان قد تطور عن الحيوان ، فإن بعض الأجناس الإنسانية لا تزال أقرب إلى الحيوان منها إلى الإنسان فيجب أن تعامل بهذا المستوى .

وأصبح من الحقائق المقررة والمقبولة ، أن الزنوج أمس رحماً بالغوريلا والشمبانزى منهم بالإنسان .

مباحث علم الأجناس :

وتعددت مباحث علم الأجناس ، والأسس التى تقوم على التفرقة بين البشر . ولقد سقط منذ عصر مبكر الادعاء بوجود أى خلاف تشريحى بين أجناس البشر ، لا أجناس البشر الأحياء اليوم ، بل البشر الذين عاشوا منذ عشرات الألوف من السنين .

ولذلك فقد اتجهت المباحث نحو بعض الظواهر الثانوية كلون البشرة ، فقسم البشر إلى أنواع ثلاثة ، الأبيض والأسود والأصفر . أو من حيث الشعر ونوعه ، ومن جديد قسم البشر إلى أقسام ثلاثة أصحاب الشعر الصوفى (الجعد) والشعر السبط والشعر الناعم (المتموج) .

---

(١) Memoires sur le contact des Races G. Spiller — p. 121.

كما قسموا من حيث شكل الرأس وما إذا كان مستديراً أو مستطيلا ، ومن حيث شكل الأنوف ، وما كان منها أفطس أو مرتفعاً ، ومن حيث طول القامة ، حتى إذا لم يوصلهم أى تقسيم من هذه التقسيمات إلى ما يمكن اعتباره فوارق حقيقية بين إنسان وإنسان . . . انتهوا إلى تقسيم الإنسان إلى أجناس جغرافية نسبة إلى المناطق التى يسكنها ، فقالوا بجنس البحر الأبيض المتوسط ، وقالوا بالجنس القوقازى ، والجنس الآسيوى . . . .

وخلصوا من هذه المباحث كلها إلى تقسيم البشر إلى ثلاث مجموعات أقرب ما يكون كل منها تجانساً مع فروعه وتفصيلاته ، وهذه المجموعات الثلاث هى : المجموعة البيضاء ، والمجموعة الزنجية ، والمجموعة المغولية .

فأما المجموعة البيضاء :

فموزعة على الأجزاء الغربية والشمالية من العالم القديم ، وفى سلسلة من الهجرات بعضها معروف ، والبعض لايزال مجرد تخمين ، احتل النورديون (الشماليون) وهم الشقر الطوال الرؤوس نسبيا ، الثلث الشمالى من أوربا . واحتلت العناصر الألبية العريضة الرءوس منطقة وسطى تمتد من روسيا إلى فرنسا .

وانتشر فرع البحر الأبيض المتوسط ، الأسمر الطويل الرؤوس وأقاربهم من العرب والبربر فى جنوب أوربا وشمال أفريقيا والشرق الأدنى ، على حين يعتقد أن فرعاً آخر قد اندفع نحو الهند وإندونيسيا وأقصى الجزر الشرقية فى الباسفيكى .

المجموعة الزنجية :

انتشرت فى النصف الجنوبى من العالم ، وامتدت العناصر التى

تكونها ، فى نطاق غير منقطع عبر أفريقيا وجنوب شرق آسيا ، والنجريتو القصار القامة المستديرو الرءوس بعض الشيء (الأقزام) فى أفريقيا وجنوب شرق آسيا وإندونيسيا ، ونوع آخر عادى الطول طويل الرأس يحتل معظم الجهات نفسها ، ومنه الزنوج الحقيقيون ، أو زنوج الغابات ويعيشون فى وسط وغرب أفريقيا — ومنهم زنوج المحيط البابوان والميلانيزيون فى المنطقة الجزرية الواقعة إلى الجنوب الشرقى من آسيا .

المجموعة المغولية :

وكان مركزها فى آسيا الشرقية والوسطى ، ومن هناك انتشرت العناصر المختلفة التى تنتمى إليها نحو الشمال الشرقى إلى سيبريا وشرقاً إلى الصين واليابان وجنوباً بشرق إلى الملايو وماليزيا وبولينزيا ، وغرباً فى سلسلة طويلة من الهجرات فى الشرق الأدنى وروسيا[1] .

وقد بقى أن نلاحظ أن هذا التقسيم الثلاثى الذى انتهى إليه علماء الأجناس فى خاتمة المطاف ، ينطبق كل الانطباق على ما قالت به التوراة وما ردده فيما بعد علماء المسلمين والمسيحيين ، من أن الأجناس البشرية تعود إلى أولاد نوح الثلاثة : سام وحام ويافث . . . على ما ذكرنا من قبل .

والتاريخ الدينى يصل بالأمور إلى منطقها الصحيح ، فهؤلاء الأولاد الثلاثة هم أبناء أب واحد فى نهاية الأمر . . . أما العلم الحديث ، فقد حاول فى بادئ الأمر ، أن يفصل بين الأجناس الثلاثة ولا يردهم إلى أصل واحد، ولكن علم الأجناس التطبيقى سرعان ما قضى على كل وهم

---

(١) موسوعة تاريخ العالم — لانجر — جزء ١ ص ٢٥ .

من وجود فوارق طبيعية جبلية بين هذه الأجناس الثلاثة . فما من خصيصة يتصورون أنها من لزوميات الرجل الأبيض ، إلا يجدونها محققة فى كمالها فى الجنسين الآخرين ، فقد حاولوا أن يصفوا الرجل الأبيض بطول القامة وأن الجنسين الآخرين وهما الزنجى والمغولى أقصر قامة منه ، فإذا هم يعثرون فى أفريقيا على زنوج يعتبرون أطول الجنس البشرى جسوماً ، فى الوقت الذى يسكن بالقرب من هؤلاء الزنوج المفرطون فى الطول . . . أقصر أناس فى العالم وهم الزنوج الأقزام الذين يعيشون عند خط الاستواء .

وتصوروا حيناً أن حجم رأس الرجل الأبيض يكبر حجم الجنسين الآخرين، وأرادوا أن يتخذوا من كبر حجم الرأس دليلا على كبر حجم المخ بالتالى ، ويستدلون من ذلك على تفوق الرجل الأبيض . . فإذا هم يجدون أن أكبر الرؤوس حجماً يوجد لدى الإسكيمو . ووجدوا بين الشعوب البيضاء من هو مستدير الرأس ومن هو طويله كما هو الشأن عند الزنوج .

حتى اللون الأبيض الذى تصوروه نوعاً من الامتياز الفسيولوجى أو البيولوجى ، سرعان ما اكتشفوا أن هذا اللون الأبيض ينشأ نتيجة اختفاء نوع معين من الصبغيات (pigments) الذى يوجد فى جلد الإنسان الذى يعيش طويلا فى وهج الشمس حيث تساعده هذه الصبغيات على احتمال حرارة الشمس ، فاللون الأبيض جاء نتيجة البعد عن حرارة الشمس فاستغنى الجسم عن هذه المادة ، فهو مظهر نقص فى التركيب الجسمانى لا مظهر كمال .

قانون ماندل وفصائل الدم :

وجاءت الضربة القاضية لكل الأبحاث التى تهدف إلى التفريق بين الأجناس ابتداء من عام ١٩٠٠ عند ما بعث قانون ماندل فى الوراثة

واعتبر الأساس العلمى لانتقال الصفات من الأسلاف إلى الأحفاد .

فحتى قانون ماندل فى الوراثة ، يعتبر الدم العامل الوحيد لنقل خصائص الإنسان إلى سلالته ، ولما كان الدم ينتقل دائماً من الأم إلى وليدها ، فالخصائص تنتقل مع الدم وبذلك تبقى ثابتة .

ولم يكن ذلك إلا أحد توهمات العلم ، فقد ثبت أن عوامل الوراثة إنما تنتقل بواسطة المورثات (الجينات genes) وهى أحد أجزاء الكروموزومات التى توجد فى الخلايا الحية . وقد قيل إن الخلية التى تؤلف الحيوان المنوى ، وكذلك الخلية التى تؤلف البييضة عند الأنثى ، تفقد كل منهما نصف كروموزوماتها عند الاتحاد الذى يتم عند عملية الإخصاب ، ومعنى ذلك أن نصف مورثات الأنثى وكذلك نصف مورثات الذكر تضيع أثناء هذه العملية ، مما يترتب عليه أن الوليد يجىء دائماً مختلفاً فى تكوينه عن أمه وأبيه معاً ، وقد يرث لون الجلد من أحدهما ويرث لون الشعر من الآخر ، أو قد يرث لون العينين من أحدهما دون الآخر وهكذا . وقد أصبح ذلك يفسر لماذا يختلف أحد الشقيقين عن شقيقه . . بل أحد التوأمين فى بعض الأحيان عن شقيقه التوأم[١] .

ومؤدى ذلك من الناحية العلمية أن فضل الصفات الوراثية قد تظهر فى الوالدين وتتلاشى فى ذريتهما ، وأن العبقرية التى تتوافر فى بعض الأسلاف ، قد تنعدم ويحل محلها انعدام المقدرة ، بل البلاهة أو الجنون عند أحد أفراد الذرية[٢] .

---

(١) كان من نعم الله على أن رزقنى ابنتين توأمتين ، ومع ذلك فهما يختلفان فى الشبه كل الاختلاف . . . بل يختلفان بالأكثر فى الطباع .

(٢) كتاب المجتمع – تأليف رام ماكيفر وشارلى ، ترجمة الدكتور أحمد عيسى ص ١٨٠ .

فصائل الدم :

ثم كانت الأبحاث العلمية الحديثة فى تحليل الدم وتقسيمه إلى فصائل، وكان هذا الكشف العلمى بدوره نسفيها لكل الأبحاث السابقة التى دارت حول تقسيم الأجناس البشرية على أساس من لون البشرة أو الشعر أو حجم الجمجمة ، فللدم كما هو مقرر اليوم فصائل أربع . ا ، ب ، س ، ا ب .A. B. C. AB وهذه الفصائل ثبت أنها لا تورث فقد يكون دم الأب أو الأم من إحدى الفصائل ثم يأتى دم الوليد من نوع آخر . وقد وجدت هذه الفصائل الأربع فى كل المجاميع البشرية أياً كان نوعها ومكانها على ظهر الأرض ، فوجدت كلها عند الإسكيمو وعند الزنوج وعند البيض والصفر ، بل وجدت عند قبائل نيوغينيا وأستراليا المنقرضة .

الاستقراء التاريخى :

وقد قوت هذه الأبحاث العلمية التجريبية ، من الحقيقة التاريخية التى يسجلها التاريخ ، من أنه لا يوجد شيء اسمه الجنس الإنجليزى مثلا أو الجنس اللاتينى أو الجنس اليونانى ، فما من جنس من هذه الأجناس إلا وهو خليط من عديد من الأجناس التى جاء كل منها ثمرة اختلاط عديد من الأجناس .

وحسبنا أن نضرب على ذلك مثلا واحداً من الجزر البريطانية والتى قيل عنها إن كونها جزيرة منفصلة عن أوربا قد جعلها فى معزل عن الاختلاط الشديد بين الأجناس .

---

(١) دائرة المعارف الأمريكية Americana مادة race

يقول لنا وليم لانجر فى موسوعته عن تاريخ العالم :

« من الواضح أن سكان بريطانيا فى عصر ما قبل التاريخ ، كانوا مزيجاً من عناصر البحر المتوسط والعناصر الألبية والنوردية ، أى أنها اشتملت على عناصر إيبيريه سوداء الشعر وعناصر أخرى شقراء الشعر »[١] .

ثم يمضى أخونا الدكتور نظير سعداوى مستعرضاً الأجناس التى تألف منها الإنجليز فى كتابه تاريخ إنجلترا فيقول مانلخصه فيما يلى :

« فإذا وصلنا إلى الفترة ما بين ١٢٠٠ و ٦٠٠ ق . م . نجد أن الكلتيين الخلص قد انقسموا إلى عنصرين ، الغاليين الذين ما زالت سلالتهم تعيش فى شمال أيرلندا أو أعالى اسكتلندا ، والكريون والبريطانيين الذين يعيشون فى إقليم غالة (ويلز) .

حتى إذا وصلنا إلى عام ٥٧ ق . م . دخلت بريطانيا فى حكم الرومان الذين حملوا معهم عناصر جديدة من شعوب البحر الأبيض المتوسط الذين سكنوا الجزيرة وعملوا على تعميرها . ولم تكد الفرق الرومانية العسكرية تجلو عن الجزيرة حتى بدأت الجزيرة تتعرض لسلسلة من غارات التيوتون والسكوت (S-o) والسكسون . وفى عام ٧٨٧ انهال على إنجلترا ما يسمى غارات الدانيين Danes الذين راحوا ينهبون ويسلبون ثم شرعوا يستقرون ، ثم عاد الدانيون فى موجة جديدة تخرب وتحرق ثم تحتل إنجلترا مؤلفة إمبراطورية شملت غرب أوربا ومزجت كل عناصرها ، حتى إذا كان القرن الحادى عشر فتح وليم النورماندى إنجلترا حاملا معه اللسان النورماندى والعناصر التى يتألف منها النورمان »[٢] حتى إذا بدأ العصر الحديث ، وتحولت إنجلترا إلى مستعمرة ، امتلأت الجزر البريطانية بعناصر من الهنود

---

(١) جزء ١ ص ٤٥٣ .

(٢) الدكتور نظير سعداوى ، تاريخ إنجلترا .

والزنوج وسائر شعوب الأرض ، التى اختلطت كلها بالعنصر الإنجليزى .
وهذا الذى حدث فى إنجلترا قد حدث أضعاف أضعافه فى أى شعب من شعوب العالم ، وحسبنا أن نسترجع ما حدث فى بلادنا مصر بالذات ، وكيف أنها كانت دائماً أبداً بوتقة لسائر شعوب الدنيا وأجناسها ، وتمثل الولايات المتحدة فى عصرنا الحاضر ، أكبر مزيج واختلاط بين الأجناس .

نتيجة البحث :

وقد انتهت هذه المباحث التاريخية ، والمباحث العلمية إلى حقيقتين متفق عليهما الآن تجدهما فى كل دوائر المعارف وكتب العلم . وهاتان الحقيقتان هما :

أولا — ليس هناك جنس بشرى لم يختلط ببقية الأجناس .
ثانياً — ليس هناك جنس أرقى من جنس آخر .

مؤتمر عالمى فى مطلع القرن :

والعجيب أن هاتين الحقيقتين العلميتين كانتا محل بحث مؤتمر عالمى عقد فى لندن فى مستهل القرن أى فى سنة ١٩١١ فى المدة من ٢٦ يوليو حتى ٢٩ منه وقد حضره علماء الأجناس من أربعين دولة[١] ، وذلك فى الوقت الذى بلغ فيه النهم الاستعمارى أشده ، وبلغ غرور الرجل الأبيض بنفسه الذروة ، ومع ذلك انتهى هذا المؤتمر إلى نفس هاتين النتيجتين .

---

(١) مثلت مصر فى هذا المؤتمر بوفد كان يرأسه الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد وكان من بين أعضائه حسن (بك) صبرى الذى أصبح رئيساً للوزارة سنة ١٩٤١ ، والدكتور محمد بدر .

وإنه ليطيب لى أن أنقل فقرات مما ألقى فى هذا المؤتمر من الأبحاث ، تخليداً لذكرى هذا النفر من العلماء الإنسانيين الذين تحدوا شعوبهم فى ذلك الوقت بهذه الآراء العلمية الأمينة الصادقة .

يقول Dr. Felix von Luschen أستاذ علم الأنثروبولوجيا فى جامعة برلين : « إننا نعلم الآن أن لون الجلد والشعر إنما يرجع فى الدرجة الأولى إلى عامل البيئة ، فنحن الأوربيين إذا كان لون جلدنا أبيض وشعرنا على ما هو عليه ، فليس ذلك إلا بسبب معيشة أجدادنا ألوفاً من السنين فى أرض محرومة من أشعة الشمس ومغلفة على الدوام بالضباب . وبياض الجلد لا يعنى شيئاً سوى نقصان مادة التلوين pigments ، وإذا كان أجدادنا قد فقدوا عنصر التلوين هذا ، فذلك لأنهم لم يكونوا فى حاجة إليه ، ومن الطبيعى أن يكون لون جلد بعض الأجناس الهندية أو السنغالية داكناً ، فأى سخف أن نصفهم لهذا السبب بالتوحش . لقد كان لهذه الشعوب مدنيات عريقة ، وكانوا يمارسون ديناً رفيعاً سامياً فى الوقت الذى كان مثل أجدادنا الأعلى فى الحياة ، متواضعاً جدا . ويزعم البعض أن شكل الأجناس الملونة قبيح ، وينسى هؤلاء أن الجمال والقبح مسألة نسبية بحتة ، فاليابانيون وهم من هم من رفاهة حس وروعة فن ، يرون أعيننا الواسعة وأنوفنا المحدودبة غاية القبح .

كما يحلو للبعض أن يتشدق بالقول إن الأجناس البدائية ليست نظيفة مثلنا ، وهؤلاء ينسون أولا ما توجد عليه شعوب أوربا الشرقية من القذارة ، وينسون بالأكثر الحقيقة الشاهدة على أن بعض الشعوب البدائية يستحم كل يوم ، بل إن جنس البانتو وغيرهم من الأجناس الأفريقية ينظفون أسنانهم عقب كل أكلة نصف ساعة (بمساويكهم) فى حين لا يستعمل ملايين من الأوربيين فرشة الأسنان مرة واحدة . ويشيرون أحياناً إلى الملابس ، وكيف أن بعض الشعوب البدائية تعيش عارية غير مدركين

أن هذا العرى لم يمنع تطور أحاسيسهم الرقيقة المهذبة [١] ، ونحن نعلم كيف أن الكثيرين من بين صفوفنا ، لم يحل لبسهم الحرير والصوف أن يكونوا ألفاظاً أشراراً شرسين .

واعتبر البعض أن فقدان بعض الشعوب البدائية للكتابة ، هو دليل على انحطاطهم ، وصحيح أن الأغلبية العظمى من الشعوب البدائية لا تعرف القراءة أو الكتابة ، ولكن يجب ألا ننسى أن ٩٠٪ من الشعب الروسى لا يعرف بدوره القراءة أو الكتابة وقد بقى أن نعرف أن هذه الشعوب البدائية التى لا تكتب تتمتع بذاكرة خارقة أقوى بكثير من ذاكرتنا مما يجعلنا نجزم أن اختراع الكتابة قد أدى إلى تدهور الذاكرة . وكثيراً ما حاول البعض أن يتخذوا من السمات والتقاطيع ما يثبتون به وضاعة بعض الأجناس ، فالزنجى بجلده الأسود وشفاهه الغليظة الدامية ، وأنفه المفلطح لا يمكن أن يكون إنساناً ، بل هو حيوان أليف ، بحيث يترك لكل إنسان كيفية معاملته حسب هواه ، كما لا يسأل الإنسان عن كيفية معاملته لحيواناته وخيوله .

ويحاول بعض العلماء أن يجدوا أصولا متفرقة للجنس البشرى فيرجعون الجنس الباليولوثى إلى الغوريلا وجنساً آخر إلى الأورانج ، ولكن الأغلبية العظمى من المؤلفين العصريين الثقات يرجعون الجنس البشرى بأكمله إلى أصل واحد ، فالإنسانية واحدة » .

ثم عرج هذا العالم الإنسانى الكبير على استعراض فروع الأجناس البشرية كلها مثبتاً تفرعها وتسلسلها من بعضها ثم ختم بحثه العلمى الإنسانى بقوله :

---

(١) طالع للمؤلف كتاب «من وحى الجنوب» طبع دار المعارف ، حيث تحدث بتفصيل عن قبائل الدنكا التى تعيش عارية ، ومدى ما يستمتعون به من فضائل وأخلاق.

« وبعد فقد قلت مرة فى إحدى محاضراتى فى الجامعة إن المتوحشين الحقيقيين الوحيدين فى أفريقيا هم بعض عناصر الرجل الأبيض الذين اتخذوا القتل حرفة لهم ، وإنى أكرر الآن أمامكم ، أنى ما زلت مؤمناً أن بعض البيض يمكن أن يوجدوا فى مستوى عقلى وخلقى أدنى من بعض الأفريقيين السود » [١] .

أما العلامة G. Spiller سكرتير عام المؤتمر فقد ألقى بحثاً فى حقيقة التساوى بين الأجناس البشرية ، فكان من بين ما قال :

« لقد قيل أحياناً إن أى فرد لا ينتمى إلى الجنس القوقازى (الأبيض) لا يمكن أن يحصل على شهادة جامعية ، بل قيل إن عدداً من الشعوب لا يستطيع متابعة التعليم الأولى ، ولكن الوقائع والحقائق الثابتة تكذب هذا الادعاء ، فالجامعات الأوربية تضم العدد الكبير من مختلف الطلاب المنتمين إلى شعوب غير أوربية وشعوب ملونة ، وكلها تحصل على أرقى الدرجات الجامعية ابتداء من البكالوريوس حتى الدكتوراه » .

ومن بين العشرة ملايين زنجى الذين يوجدون فى الولايات المتحدة ، الكثير من المحامين والجراحين والأطباء ، وعشرات الألوف الذين حصلوا على أرقى الشهادات الجامعية . وما أكثر ما تردد وصف بعض الأجناس بعدم القدرة على التقدم ، فى حين يحدثنا المؤرخون أنه فى أيام دانتى كانت الأساليب الزراعية المستعملة فى دول أوربا الغربية باقية من أيام الحضارة الرومانية . وفى مطلع العصر الحديث فإن التيوتون ذوى الشعر الأحمر والذين كانت درجة تمدنهم لا تزال بدائية جدا ، لم يبدوا أى رغبة فى محاكاة المدنية الرومانية أو الأخذ بأساليبها ، أفيحق لنا أن نستخلص من

---

(١) Memoires sur le Contact des Races — P. 16.

ذلك أن الجنس الأوربى بعامة والتيوتونى بخاصة ، أجناس عاجزة عن التقدم .


الحق أننا يجب أن نؤمن بقول راتزل :

إنه لا يوجد سوى نوع واحد من الإنسان ، حقًّا قد تتنوع أشكاله وصفاته ولكن هذه الخلافات لا تعدو أن تكون سطحية بحتة » .

وحسبنا هذا القدر مما قيل فى هذا المؤتمر ، الذى انتهى بتقرير وحدة الجنس البشرى .

هتلر والنازية :

وقد كان يظن أن هذه القضية قد فصل فيها نهائياً ، وأنها قد زادت تدعيما بإنشاء عصبة الأمم التى اعترفت بحق شعوب الأرض كلها على اختلاف ألوانها وأجناسها بحق تقرير المصير ، وبانتشار المبادئ الشيوعية التى تبشر بوحدة الكادحين فى الجنس البشرى ، أجل كان يظن أن وحدة الجنس البشرى قد تأكدت ، فإذا هى تتعرض لنكسة كأشر ما عانت فى يوم من الأيام ، وإذا هتلر زعيم ألمانيا يطلق نيران التعصب الجنسى من عقالها ، ويرى ألا سبيل لانتقام ألمانيا لهزيمتها فى الحرب العالمية الأولى ، إلا أن يجعل اليهود السبب فى هذه النكبة . وإذ كان اليهود ينحدرون فى رأى هتلر وحزبه النازى من أصول سامية ، فقد بدأ التبشير بالعداء للسامية ، والإعلاء من شأن الآرية التى ينتمى إليها الجنس الألمانى ، وعزو كل الفضائل ، وكل الحضارة الإنسانية إلى العنصر الآرى ، والجرمانى بصفة خاصة ، وأن هذا الشعب وحده صاحب الحق فى السيادة على العالمين .



وليس هناك ما هو أدعى لسخرية علماء الأجناس فى الوقت الحاضر من التحدث عن جنس آرى ، فالآرية هى لغة وليست جنساً محدداً من البشر ، ومع ذلك فقد كانت هذه الحقيقة الزائفة هى التى رفعها هتلر وحزبه النازى ، وجعل منها عقيدة وديناً رسميا للشعب الألمانى ، وباسمها وتحت لوائها خاض الحرب العالمية الثانية لتحقيق سيادة الشعب الألمانى.

ومن عجب أن هذه الدعوة التى حمل لواءها الألمان ، كانت من أفكار فرنسى وآخر إنجليزى . أما الفرنسى فهو الكونت آرثر جوزيف دى جوبينو الذى نشر كتاباً فى منتصف القرن التاسع عشر يدور حول « عدم التساوى بين الأجناس البشرية » ونادى فى هذا الكتاب بسمو الجنس الأبيض وبعلو الجنس الآرى على بقية الأجناس واعتبر التيوتون هم أصفى عناصر الحضارة الآرية .

أما الإنجليزى الذى يعتبر الأستاذ المباشر لهتلر فى هذه الدعوة كما قرر ذلك فى كتابه « كفاحى » فهو هـ . س تشمبرلين الذى ألف كتاباً فى « أسس القرن التاسع عشر» جاعلا من الجنس الآرى الدعامة الكبرى لحضارة العالم وإنسانيته وأنه صاحب الحق فى سيادة العالمين .

وكان الذى نعرفه من اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية ، وانتهائها بهزيمة الألمان المروعة ، حيث لا تزال بعد أكثر من عشرين عاماً على انتهائها ممزقة إلى كتلتين متباغضتين متعاديتين ولا تزال عاصمتها مقسمة ومحتلة بأربعة جيوش أجنبية . أما هتلر نفسه نبى الآريين والداعى إلى سيادتهم ، فقد وضع حداً لحياته بعد أن لم يبق له من ملكه العريض إلا بضع أقدام يدفن فيها نفسه قبل أن يقع فى يد الروس .

جنس إنسانى واحد :

واليوم تنتصر فكرة وحدة الجنس البشرى من جديد، بعد أن أصبح العلم النظرى والتجريبى يؤكدها ، والواقع الحى يشهد لها ، وليس يقلل من قسوة هذه الحقيقة ألا يزال بعض المتعصبين فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى جنوب أفريقيا يمارون فيها ، حيث لا تزال مظاهر التمييز العنصرى تمارس على صورة كريهة .

زنوج أمريكا :

وليس أدل على أن آخر مظاهر التمييز العنصرى فى النزع الأخير ، أنه من هذين البلدين بالذات وأعنى بهما الولايات المتحدة الأمريكية وأفريقيا ، يأتى الدليل على سخافة كل حديث عن التفوق العنصرى . فأما الولايات المتحدة الأمريكية فقد أثبت الزنوج — على الرغم من أنهم لم يتحرروا من أسر الرق والعبودية من الناحية الرسمية إلا منذ مائة عام ، وعلى الرغم من كل الظروف المعاكسة التى وضعت فى طريقهم — أنه لا يوجد ميدان من ميادين النشاط الإنسانى لم يلحقوا فيه بالرجل الأبيض ، بل إنهم يتفوقون عليه فى ميادين الرياضة والفنون وخاصة الموسيقى والرقص والغناء ، وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد خرجت فائزة منتصرة فى دورة طوكيو للألعاب الأولمبية ، وأحرزت المكانة الأولى ، واحتل الاتحاد السوفييتى المكانة الثانية ، فقد حققت هذا النصر بفضل تفوق أبطالها من الزنوج ، فمن بين العشرين بطلة أمريكية اللواتى اشتركن فى مسابقات العدو كانت خمس عشرة منهن زنجية . ومن بين الأبطال العشرة الذين تقدموا للملاكمة كان تسعة منهم من الزنوج. ومن بين الاثنى عشر لاعباً

من لاعبي الباسكت بول كان خمسة من الزنوج [١] ، وهذه هي الألعاب التي حققت سيادة أمريكا .

أما في الموسيقى والغناء والرقص ، فقد أصبحت السيادة في هذه الفروع للزنوج . . ولم يقف تأثير هذه الفنون على البيض في أمريكا بل لقد تعداهم إلى التأثير على الموسيقى والغناء والرقص في كل أوربا .

وأخيراً تقول لنا دائرة المعارف البريطانية : « لا يوجد فرع من فروع العلوم والتكنولوجيا والدراسات والاختراعات العلمية إلا وللزنوج الأمريكيين فيها نصيب كبير » ، ثم تروح دائرة المعارف تنشر القوائم الطوال بأسماء النوابغ والعلماء والفلاسفة والفنانين والكتاب ، الذين حصلوا على تقدير العالم وليس الأمريكان فقط . . . ومن بينهم عدد ممن أحرز جائزة نوبل للسلام .

زنوج أفريقيا :

أما زنوج أفريقيا المعذبة التي طال امتهانها وامتهان شعوبها ، فهاهي ذي ترد بقوة وعنف ، وترفع رأسها في كبرياء وشموخ ، بعد أن أصبحت تضم ٣٤ دولة مستقلة تؤلف أكبر كتلة من الدول في قارة من القارات . . وبدأ زعماؤها وممثلوها السياسيون ومفكروها يلعبون دورهم على قدم المساواة مع أقرانهم من بقية الأجناس ، ويبهرون شعوب العالم من حين لآخر بما يبذلونه من جهد غير عادى للقضاء على التخلف في بلادهم واللحاق بركب الحضارة الإنسانية التي حجزوا عنها حجزاً طوال القرن الماضي .

---

(١) مجلة لايف الأمريكية عدد ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٤ — ص ٥٥ .

اليابان والصين :

ولا نحسب أن أحداً فى العالم ، بات لا يعرف للشعب اليابانى قدرته العجيبة التى فاقت قدرة كل شعوب أوربا وأمريكا . . . فهى لم تكد تخسر الحرب العالمية الثانية حتى نهضت نهضة تذهل كل الباحثين والدارسين ، فاليابان تعتبر بهذه الأيام أكثر أمم الأرض إنتاجاً ونجاحاً وذلك بفضل قرائح أبنائها وعزائمهم .

أما الصين فحسبها أنها استطاعت أن توحد بين سبعمائة مليون من البشر فى ظل حكومة مركزية واحدة ، وهو شىء لا مثيل له فى أى ركن من أركان العالم . . . ولقد كان نجاحها فى تفجير قنبلتها الذرية الأولى ، أكبر تحد لمن يستطيل بقوته المادية .

أوثانت البوذى :

ويتربع على كرسى سكرتارية هيئة الأمم المتحدة ، بوذى من بورما ، اختاره ممثلو دول العالم ليكون حكماً محايداً بينهم وليس وراء ذلك تكريم لإنسان من غير البيض .

العلماء يذيعون بياناً نهائياً بكلمة العلم :

وقد أرادت هيئة الأمم أن تجهز بطريقة علمية نهائية على كل حديث عن التفرقة العنصرية وعن التمايز بين الأجناس ، فدعت مؤتمراً من أعلام سبع عشرة دولة فى علم البيولوجيا ، وهى دول بلجيكا والبرازيل وكندا وتشيكوسلوفاكيا وجمهورية ألمانيا الاتحادية وفرنسا والهند واليابان

والمكسيك ونيجيريا والنرويج وبولندا والسنغال والمملكة المتحدة والولايات الأمريكية المتحدة وروسيا وفنزويلا .

وقد اجتمع علماء هذه الدول فى مدينة موسكو عام ١٩٦٤ وأصدروا بياناً من ثلاث عشرة نقطة أهمها على الإطلاق النقطة الأولى التى تقول :

« كل الكائنات البشرية التى تعيش اليوم تنتمى إلى نوع واحد هو النوع البشرى ، وكلها ترجع إلى سلالة مشتركة وأصل واحد . وهناك خلاف فى وجهات النظر فيما يتعلق بالكيفية والزمن اللذين تفرقت فيهما الجماعات البشرية عن هذا الأصل المشترك »[١] .

وهكذا لم تعد مسألة وحدة الجنس الإنسانى محل جدل أو نقاش بل حقيقة مقررة تسير شئون العالم على أساسها . وعلينا أن ننظر إلى الخلافات السطحية التى تفرق بين ألوان البشر ، وأمزجتهم ، نظرتنا إلى الخلافات التى توجد بين أفراد الأمة الواحدة ، بل أفراد الأسرة الواحدة ، ذلك أن روعة الطبيعة لا تتجلى أكثر من تجليها فى حياة البشر ، فلكل إنسان شخصيته وطابعه الخاص الذى يفرقه عن أى إنسان آخر فى الوجود ، ولكن هذا لا ينفى الحقيقة الثابتة ، التى بدأنا بها هذا الفصل ، من أن البشر جميعاً قد جاءوا من أصل واحد مشترك وهو الأب الأول ، وعلى أية حال فهم يولدون جميعاً بأسلوب واحد وبغير استثناء ، ثم يختمون حياتهم جميعاً بالموت بدون استثناء ولهم جميعاً وبدون استثناء خصائص تفرقهم عن باقى الأجناس وأنواع الحيوانات التى تغص بها الحياة . . . وأما هذه الخصائص فهى :

١ — القوام المعتدل .

٢ — القدرة على استخدام اليدين لصنع الآلات .

---

(١) رسالة اليونسكو — عدد ٤٧ .

٣ ـــ القدرة على التكلم واختراع لغة ترمز لشتى المسميات المادية والمعنوية . أو بالأحرى القدرة على التفكير والتخيل والتدليل والاستنتاج .

هذه الخصائص الإنسانية ، لا تتوافر فى كل إنسان يوجد على ظهر الأرض فى الوقت الحاضر فحسب ، بل إنها توافرت دائماً فى أى إنسان عرفته هذه الأرض ، وإلا لما استطاع الجنس البشرى أن يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام[١] ......

أما الآن فحسبنا أن نخرج من هذا البحث المستفيض ، بأن الأرض لم تعرف إلا إنساناً واحداً فى كل تاريخها ، وأن الإنسان قد ولد كاملا أو بالأحرى منطوياً على كل الاستعداد للتطور وبلوغ الكمال ، أو كما يقول القرآن الكريم :

« وعلم آدم الأسماء كلها » أى جهزه بالقدرة على تعلم كل شىء وألا مناص للجنس البشرى من أن يعترف بوحدة أصله بعد وحدة كوكبه ، وأن يحس بالأخوة التى تجمعه إلى كل فرد من أفراد البشرية .

(١) اقرأ للمؤلف كتاب « الأمة الإنسانية » .

الفصل الثالث

اللغة الإنسانية

وحدة اللغة – اللغة تعنى الإنسانية – تعريف اللغة – كيف نشأت اللغة – ابن جنى وأصل اللغة – محاكاة الطبيعة – كلمات اصطلاحية – لغة الإشارة العالمية – اللغة الملفوظة – الأسباب التى تؤدى إلى اختلاف اللغات – الجهاز الصوتى – اختلاف البيئة الطبيعية – اختلاف البيئة الاجتماعية – اللغة كائن حى – وظيفة اللغة الأساسية – الكتابة – الكتب المقدسة – القرآن الكريم – تدخل السلطة المركزية – اللغة العربية – القرآن والكلمات الأعجمية – وحدة العلم والثقافة – لغة واحدة برموز مختلفة – العلم الحديث يحل مشكلة اختلاف اللغات.

وحدة اللغة الإنسانية :

لست أشك لحظة فى أن هذا العنوان وأعنى به وحدة اللغة الإنسانية سيفاجئ القارئين والباحثين للوهلة الأولى ، فليس هناك ما يفرق فى نظر الكثيرين بين طوائف البشر ، سوى تعدد اللغات ، بل لعل الأساس الأوحد الذى تقوم عليه القوميات المتعددة هو اللغات المتعددة ، ولكنا سنرى بعد المتابعة فى هذا البحث ، أن ذلك كله لا يعدو سطحية فى النظر والفكر ، والجرى وراء أفكار أوربية متطرفة ، جاءوا بها فى القرن التاسع عشر ، عندما بالغوا فى الاعتداد بقوميتهم ولغتهم ، نتيجة للتفاخر بأجناسهم والادعاء بأنها تفوق سائر الأجناس ، وإلا فلم يحدث أن بالغ البشر فى موضوع اللغة قبل القرن التاسع عشر ، فقد عاشت الأمم والجماعات عبر التاريخ تتفاهم وتتعاون وتتبادل المنافع والخدمات ، وتنقل عن بعضها مقومات الثقافة والحضارة ، دون أن يحول اختلاف اللغات عن تمام ذلك . فالمصريون القدماء اتصلوا بالفينيقيين والآشوريين والبابليين والحيثيين والفرس والإغريق والرومان ، ولم يحل اختلاف اللغات دون سير الأمور داخل هذه الإمبراطوريات المتنوعة المترامية الأطراف ، ولعل آخر نموذج من هذا الطراز سجله لنا التاريخ بكامل تفاصيله ، دخول العرب إلى إمبراطوريتى فارس والروم فى آسيا وأفريقيا ، فقد كانت هذه الشعوب التى دخلها العرب تتكلم بلغاتها الخاصة ، وقد احتاج الأمر إلى بضعة قرون قبل أن تصبح اللغة العربية هى لغة السواد الأعظم من هذه الشعوب ، ومع ذلك فإن هذا لم يمنع من تفاعل العرب مع ثقافات

هذه الشعوب وحضاراتها ، وتحويل ذلك كله إلى أعظم حضارة إنسانية عرفها البشر ألا وهى الحضارة الإسلامية ، التى كانت ثمرة امتزاج الحضارات الإنسانية القديمة كلها ، بعد أن سرت فيها روح القرآن ومبادئه الإنسانية الرفيعة ، وإن الإنسان ليدهش ، عندما يرى أن أئمة الفكر والعلم والفلسفة والفن بل اللغة والدين ، كانوا جميعاً من غير العرب أو إن شئت الدقة أغلبيتهم العظمى من غير العرب ، ما بين فارسى ورومى وحبشى وتركى وهندى ومصرى .

فلم يحدث أن حال اختلاف اللغات إذن ، دون اختلاط الأجناس والتعاون على إنشاء الحضارات ، كما أن التاريخ يقطع من ناحية أخرى بأن وحدة اللغة بين جماعات من الناس لم يكن لها أثر فى التقريب بينهم وحملهم على تأليف وحدة اجتماعية واحدة ، فالعرب عاشوا قبائل متفرقة فى جزيرة العرب يحارب بعضهم بعضاً ، ويقتل بعضهم بعضاً دون أن يكون لتخاطبهم جميعاً بالعربية أو بلهجات متقاربة منها ، أثر فى تخفيف حدة الخصومات بينهم ، وذلك فى الوقت الذى كانوا يعيشون فى ود مع الشعوب المجاورة ، فرساً كانوا أو أحباشاً أو روماناً ، وهم الذين يخالفونهم فى اللغة . . . ولم يعرف العرب الوحدة السياسية والروحية فى حياتهم إلا فى ظل الإسلام ، أو بالأحرى فى ظل صدر الإسلام . . . ثم عاد العرب إلى منازعاتهم القبلية وخلافاتهم الموروثة فكادوا أن يودوا بوحدة العالم الإسلامى وبالدين الإسلامى من أساسه ، لولا أن حافظ على هذا الدين وأبقاه ، شعوب الأرض التى دخلت فى الإسلام أفواجاً ، ورضيته لأنفسها ديناً واتخذته أساساً لحضارتها .

ومثل العرب فى جاهليتهم ، قبائل الإغريق ، فلقد عاشوا بدورهم قروناً عديدة وهم يقاتل بعضهم بعضاً ، مع أنهم يتكلمون اللغة الإغريقية ، فى الوقت الذى انساحوا فيه فى مناطق الشرق الأدنى ، يؤلفون المجتمعات

وسط شعوب أخرى تتكلم غير لغتهم ويتعاونون معها فى سلام ووئام، كما كان شأنهم فى مصر أيام أبسماتيك . ولقد ظل الإغريق يقاومون الوحدة فى بلادهم حتى فرضها عليهم الإسكندر المقدونى بقوة السيف ، ولم تلبث بعد موته أن انفرط عقدها من جديد .

وعاشت الشعوب الجرمانية فى أوربا طوال العصور الوسطى وهى تتكلم الألمانية دون أن تفكر فى الوحدة ، بل لقد قاوم الوحدة الألمانية كل علمائها الأعلام وجهابذتها وأبطالها وفنانوها من أمثال كانت ، وجوته ، وشيلر ، وبتهوفن ، وكان بعضهم يستعيذ من فكرة الوحدة الألمانية ، ويرى أن ذلك من شأنه القضاء على الحرية والعلم والفن ، ولم تتحقق الوحدة الألمانية إلا فى عصر متأخر جدا من القرن التاسع عشر (١٨٧٠) على يد بسمارك ، وتمت بقوة الحديد والنار ، لا اللغة .

وفى عصرنا الحديث توجد دول ومجتمعات من كل صنف وطراز وعلى كافة المستويات تسودها أكثر من لغة رسمية دون أن يكون لذلك أى أثر فى رقيها أو تطورها ، ابتداء من سويسرا والبلجيك حتى جنوب أفريقيا وكندا ، ولعل الهند أعظم مثل على أن تعدد اللغات لا يحول دون الوحدة القومية ، فيقول البعض إن بالهند ٢٤٠ لغة و ٣٠٠ لهجة ويردها غوستاف لوبون إلى خمس فصائل أساسية يختلف بعضها عن بعض أكبر من اختلاف اللغات الأوربية فيما بينها ، وعلى الرغم من ذلك، فليس ثمة من ينازع فى وجود وحدة روحية بين الشعب الهندى ، تعلو على اختلاف اللغات .

فالمبالغة فى إظهار خطورة اللغة فى حياة الجماعة أو الأمة واعتبارها هى العنصر الحاسم والأساسى فى التفريق بين الأمم هو وهم من نوع الوهم الذى عرضناه سابقاً من تقسيم البشر إلى جنسيات مختلفة ، وهو بدوره من مخلفات التراث الأوربى فى القرن التاسع عشر ، والذى بدأ يعدل عنه

نهائيا فى النصف الثانى من القرن العشرين ، فالإجماع منعقد اليوم بين الأعلام الثقات فى علوم اللغة ، أن ليس هنالك ما هو أمعن من الخطأ ، من القول بتفضيل لغة على أخرى ، أو تقسيم اللغات إلى لغات راقية وأخرى متخلفة [1] ، فكل لغة تؤدى بالنسبة إلى أصحابها الدور نفسه الذى تؤديه فى حياة أى جماعة أخرى ، وما من لغة حتى لو كانت لغة أكثر الجماعات بدائية بين زنوج أفريقيا أو شعوب أستراليا ، إلا فيها جميع الخصائص التى توجد فى بقية اللغات . ومن هذه الحقيقة التى انتهى إليها الباحثون ، نبدأ نحن بحثنا فى وحدة اللغة الإنسانية ، من حيث هى أصوات ترمز لمعانى ومسميات يتفق عليها ، وأن اللغة أى لغة سواء كانت الإنجليزية أو العربية أو الفارسية أو الهندية ، هى حصيلة التراث الإنسانى كله ، وقد ساهم فى تكوينها جميع الأمم والشعوب والأجناس البيضاء والصفراء والسوداء ، وكما أن أجناس البشر كلها ترتد إلى أصل واحد مشترك ، كذلك اللغة قد نبعت كلها من أصل مشترك هو هذا الإنسان الأول الذى نسل كل هؤلاء البنين والبنات ، موزعاً إياهم هذه الوديعة الكبرى ، وديعة اللغة ، فتشكلت وتنوعت كأى نتاج إنسانى آخر ، دون أن يفقدها ذلك جوهر وحدتها .

اللغة تعنى الإنسانية :

الإنسانية لا تعرف إلا باللغة ، واللغة هى المميز للإنسانية عن غيرها من الكائنات ، فالإنسان لم يسم إنساناً ويختص بوجود يفرقه عن الحيوانات إلا لأنه يتكلم هذا الكلام الذى نسميه لغة والتى هى شىء آخر غير مجرد

---

(١) محاضرات فى اللهجات — الدكتور أنيس فريحة ..

الأصوات والصرخات التى تنبعث من فم الحيوان . فليس من شك أن الحيوانات تصدر مجموعة من الأصوات التى يدل كل منها على معنى معين ، فثمة صرخات للتحذير ، وصيحات للنداء ، وأخرى للتعبير عن السرور ، ولكن هذه الصيحات والهمهمات تتم كلها بحركات غريزية تلقائية أشبه بردود الأفعال ، وهى تقف عند هذا القدر لا تعدوه ولا يمكن أن تعدوه ، لأنها غير مزودة بالعقل الذى هو سر خاص بالإنسان ينفرد به كما قدمنا ، وبواسطة هذا العقل توسع الإنسان فى مدركاته ، ووضع لكل شىء ولكل معنى ولكل حالة اسما تختص به ، وهذه هى اللغة التى هى من نتاج البشر .

تعريف اللغة :

واللغة فى أبسط تعريف لها ، هى أصوات تخرج من حنجرة الإنسان لترمز إلى مدلول معين ، بحيث يكفى التلفظ بهذا الرمز لكى يتمثل السامع على الفور صورة هذا المدلول بغير حاجة إلى وجوده أو رؤيته فضلا عن لمسه أو الإحساس به بأى حاسة من الحواس . وبهذا الأسلوب يمكن لأى إنسان أن يتفاهم مع الإنسان الآخر على ما يريد ، وأن ينقل له صورة مما يجرى فى فكره ، عن أيسر طريق وأسرعه ، فاللغة هى وسيلة من وسائل المواصلات الذهنية ، وهى لا يمكن إلا أن تكون أول أداة اخترعها الإنسان [1] ، وهى فى الوقت نفسه أعظم أداة ، وهى التى مكنت الإنسان من أن يصبح

(١) الرأى على أن اللغة وجدت مع الإنسان منذ مليون سنة أو أكثر ويستدلون على ذلك بوجود بعض الحفريات من الأدوات الحجرية مع بقايا الإنسان . والرأى على أن اللغة لا يمكن إلا أن تكون قد سبقت صنع أى أداة . (دائرة المعارف البريطانية) مادة لغة .

كائنا اجتماعيا إذ جعلته يحدد الروابط التى تربطه بأفراد عائلته ، ويؤدى الحقوق والواجبات ، ويقسم العمل ، ويستفيد من تجارب الآخرين ، ويعمل الفكر فى كل ما يجرى حوله ، فنحن نفكر بواسطة الكلما والألفاظ . والفكر هو الذى مكن الإنسان ، وسيظل يمكنه من التخيل والإبداع والخلق ، وهو ما جعله قادراً على السيادة فى هذا الكون على بقية الكائنات ، فما كان ذلك ليكون أو يتحقق إلا بواسطة هذه اللغة التى هى أصوات ترمز لمسميات ، يستعملها الإنسان لتحقيق أغراضه وإشباع حاجاته المادية والروحية على السواء .

كيف نشأت اللغة :

وقد جرت مباحث كثيرة منذ أقدم العصور لمعرفة كيف نشأت اللغة ، وقال أقوام بأنها إلهام من الله رب العالمين للإنسان ، وقد استدل علماء اليهود والمسيحيين على ذلك بقول التوراة : « وجبل الرب الإله من الأرض جميع حيوانات البرية وجميع طير السماء وأتى بها آدم ليرى ماذا يسميها ، فكل ما سماه به آدم من نفس حية فهو اسمه فدعا آدم جميع البهائم وطير السماء وجميع وحوش الصحراء باسمها »[١] .

وغنى عن البيان أن آدم لم ينطق بهذه الأسماء إلا بوحى من رب العالمين ، ومن هنا قيل إن أصل اللغة هو الإلهام والوحى من الله . وتابع كثير من علماء المسلمين هذا الرأى ، حيث يدل ظاهر آيات القرآن على هذا الرأى :

« وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى

---

(١) الفصل الثالث — سفر التكوين .

بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » [١] .

وتقول المباحث العلمية الحديثة التى تعتمد على المشاهدة والتجربة والملاحظة ، إن اللغة نتاج بيولوجى تفرضه سنن الحياة فرضاً على الكائن الحى ، وهى تتطور طبقاً لحاجات الإنسان وغريزة الإبقاء على ذاته .

ويقول علماء الاجتماع المحدثون ، إن اللغة ظاهرة اجتماعية وليست مجرد ظاهرة بيولوجية ، فهى ليست وليدة الحياة بقدر ما هى وليدة الحياة الاجتماعية والمعيشة المشتركة ، ولذلك فهى تنمو وتزدهر نتيجة اتفاق الجماعة على ألفاظها ومفرداتها التى هى رموز أولا وأخيراً [٢] .

ابن جنى وأصل اللغة :

ولقد كان موضوع أصل اللغة ، من المسائل التى أظهرتنى على عظمة التراث الإسلامى فقد تصورت أن القول بأن اللغة ظاهرة اجتماعية وأنها من خلق الجماعة واتفاقها على مفرداتها هو قول لم يسبق إليه قول ، فإذا أبو الفتح عثمان بن جنى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى ، يتناول هذا الموضوع بكل وضوح ونصاعة ويظهر فى معالجته ما يوصف فى عصرنا الحديث بالشجاعة الأدبية ، حيث يصرف مدلول آية قرآنية عن ظاهر اللفظ إلى تقدير المعنى فيقول :

---

(١) البقرة – ٣١ – ٣٣ .

(٢) اللغة والمجتمع – الدكتور على عبد الواحد وافى .

« باب القول على أصل اللغة إلهام أم اصطلاح ؟
إن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح ، لاوحي وتوقيف . إلاأن أبا على رحمه الله (هو أبو على الفارسى أستاذ ابن جنى) قال لى يوماً : هى من عند الله واحتج بقوله سبحانه: وعلم آدم الأسماء كلها . وهذا لا يتناول موضع الخلاف ذلك أنه يجوز تأويله : أقدر آدم على أن واضع عليها . وهذا المعنى من عند الله سبحانه وتعالى ، فإذا كان ذلك محتملا غير مستنكر سقط الاستدلال به . ثم مضى ابن جنى فى بحثه يقول : والذين ذهبوا إلى أن الأصل فى اللغة هو المواضعة لا الوحى قالوا : وذلك بأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومة فيضعوا لكل واحد سمة ولفظاً ، إذا ذكر عرف ما به ما سماه ليمتاز به عن غيره وليغنى بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين ، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكليف إحضاره ، لبلوغ الفرصة فى إبانة حاله . بل قد يحتاج فى كثير من الأحوال إلى ذكر ما لايمكن إحضاره ولا إدناؤه كالمعانى ، وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد كيف يكون ذلك لو جاز وغير ذلك»(١) .

وهذا الذى يقول به ابن جنى منذ ألف سنة هو خلاصة ماانتهت إليه الآراء والمباحث ، فى أن اللغة ظاهرة اجتماعية بمعنى أنها وليدة المجتمع الإنسانى ، وليست ظاهرة بيولوجية بحتة كغيرها من الظواهر البيولوجية ، كما أنها لم تخلق جملة مع الإنسان خلقاً .. وإنما نشأت وتطورت واختلفت وتفرعت تحت ضغط شتى الظروف والحاجات .

والرأى عندى ، أن اللغة مزيج من الظواهر البيولوجية والاجتماعية ، فهى من ناحية جبلية من طبيعة الإنسان بجزأيه المادى والعقلى ، وهى من

---

(١) الخصائص — الجزء الأول — ص ٤٤ .

ناحية أخرى وليدة الجماعة الإنسانية والاتفاق بين أفرادها على رموز معينة للدلالة على مسميات محدودة .

فالإنسان باعتباره كائناً حيا لديه القدرة على إخراج الأصوات من حنجرته وفمه وهذه الأصوات تختلف وتتلون حسب حالته المادية والمعنوية ، فإذا أصيب بألم ، خرج منه صوت يختلف عن الصوت الذي يصدر منه فى غير حالة الألم ، والصوت الذى يصدر منه فى حالة الفزع والاضطراب غير الصوت الذى يصدر منه للتعبير عن أمنه واطمئنانه . والصوت الذى يصدر عنه إبان الحزن أو الغضب غير الصوت الذى يصدر إبان الرضا والفرح . ومن هذه الأصوات التلقائية من حركات الألم والتعجب والفرح والفزع والدهشة نشأت الكلمات الأولى التى لا تزال آثارها موجودة فى كل لغة ويفهمها كل إنسان على ظهر الأرض مثل أصوات آه ، أوه ، ووى للتعبير عن الدهشة والتعجب ، وآى وآ ، وآخ للتعبير عن الألم وهكذا . ولا جدال أننا بالتنقيب فى كل لغة نستطيع أن نجد فيها ألفاظاً يمكن إرجاعها إلى هذه الأصوات الغريزية التلقائية . وتكون اللغة من هذه الناحية ظاهرة بيولوجية جبلية فى الإنسان باعتباره كائنا حيا .

محاكاة الطبيعة :

ولكن اللغة كما هو مشاهد وواقع لا تقف عند حد الأصوات أو الحركات التى تجىء نتيجة عوامل فسيولوجية أو سيكولوجية من ألم وفرح وحزن وغضب ، بل إن فيها العديد من الألفاظ التى لا ترجع إلى حركة داخلية فى الإنسان ، قدر ما ترجع إلى قدرته على محاكاة أصوات الطبيعة مما جعل بعض علماء اللغة يقولون بأن هذا هو منشأ اللغة ، ومن هذا الرأى صاحبنا القديم ابن جنى حيث يقول فى كتابه الخصائص (ص ٤٦) .

« وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوى الريح وخرير الماء ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل » .

وهذه الألفاظ العربية التى توحى بأنها مشتقة من أصوات الطبيعة لها مثيل فى سائر اللغات ، وفى لغتنا العامية المتداولة التى هى فى الحقيقة من اللغة المصرية القديمة كلمات قوية الدلالة فى هذا الصدد ككلمات « تف ونف وكح وبح » . وهو ما يقطع بأن جانباً من اللغة قد نشأ عن هذا الطريق .

كلمات اصطلاحية :

ولكن كلمات اللغة حتى ما كان منها بدائيا أى يتصل بأول مظاهر الوجود والعمران ككلمة رجل أو ولد أو بنت أو بيت ، هذه كلها ألفاظ لا تمت إلى أى حركة صوتية من أى نوع كان فهى لا يمكن إلا أن تكون اصطلاحية جرى عليها الاتفاق . ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى فى الكلمات التى تدل على مسميات لا وجود لها فى الطبيعة المحسوسة ، حتى يقال إنها تتصل بالأصوات سواء التى يصدرها الإنسان أو التى تحدثها الطبيعة ، كالغول والعنقاء والعفريت ، ويدخل تحت هذا الباب كل الكلمات التى ترمز لما وراء الطبيعة من الغيبيات ابتداء من الله حتى الملائكة والبعث والنشور والخلود والروح .

وكذلك الكلمات التى تدل على المعانى المطلقة والمجردة ، كالسعادة والكمال . . وهذه كلها كلمات تدق معانيها حتى على المتعلمين والمثقفين فهى دائماً فى حاجة إلى من يشرحها ويفسر معناها ليقربها إلى الأذهان

ويوضح المقصود بها ، فهى والحالة هذه لا يمكن إلا أن تجىء ثمرة الاتفاق ، فهى وليدة العقل الجماعى والمجتمع الإنسانى ، وكون الإنسان عضواً فى جماعة يحرص على العيش فيها وتبادل المنفعة مع سائر أفرادها.

لغة الإشارة العالمية :

وقبل أن نمضى فى تتبع سير اللغة وكيف تطورت وتتطور دائماً، والنواميس التى تحكم هذا التطور ، يجدر بنا أن نشير إلى وسيلة أخرى للتفاهم بين البشر ، يرى المؤمنون بالتطور أنها قد سبقت اللغة ، ونراها نحن ظاهرة إنسانية تساير اللغة وتصاحبها ، بل تقوم مقامها عند فقدانها لأى سبب من الأسباب ، وتلك هى لغة الإشارة، فالتعبير بالجسم والرأس والوجه واليدين ، وسيلة يدركها كل إنسان ويحس بها فى نفسه ، فنحن إذا غضبنا قطبنا وجوهنا واستطاع من ينظر إلينا أن يعرف تغير حالنا إلى الغضب وكذلك إذا ابتهجنا أو فرحنا انفرجت أساريرنا ، وإذا انفعلنا اصفرت وجوهنا أو احمرت على حسب الأحوال .

وكل هذه علامات وإشارات يستطيع كل إنسان أن يفهم منها حالة الإنسان الآخر .

وهناك بعد ذلك تحريك الرأس واليدين ، بما يدل على الموافقة أو المخالفة . ومن مجموعة هذه الظواهر الجسدية والحركات العضوية تألفت لغة خاصة بالإشارة بغير حاجة إلى النطق وإخراج الأصوات بحيث يمكن القول إنه إذا كان المقصود باللغة هو مجرد التعبير ، فإنه يجب فى هذه الحالة أن تقسم إلى نوعين . التعبير بالإشارة والتعبير بالصوت وكلا النوعين هما من نتاج العقل الإنسانى .

ولا جدال فى أن التفاهم عن طريق الإشارة هو لغة إنسانية عالمية ، لا يختلف فى إدراكها إنسان عن إنسان إلا بمقدار التفاوت بين القوى العقلية .
وبهذه اللغة لغة الإشارة يتفاهم أى إنسان غريب إذا حل فى مجتمع لا يعرف لغته ، وباستطاعته دائماً أن يشبع حاجاته الأساسية عن طريق هذه الإشارة ، بل لاسبيل لتعلم أى لغة أجنبية إلا عن طريق الإشارة ، فيشار باليد على المسمى ثم يلفظ الصوت الخاص به ، أوأن تعرض صورة الشيء ثم يشار إليه ويلفظ الصوت الخاص به ، فالإشارة إذن ، هى أولى مراحل اللغة وجزء أساسى فيها .

وهناك أناس يعيشون طول حياتهم لاسبيل لهم للتفاهم مع بنى الإنسان إلا بواسطة الإشارة وهم هؤلاء الذين حرموا من نعمةالنطق ونعنى بهم (الخرس) والتاريخ يحدثنا أنه حيث التقى أقوام بآخرين لا يعرفون لغتهم ، استطاعت الإشارة دائماً أن تحقق التفاهم ، كما حدث بين خرستوف كولمبس عندما نزل أمريكا لأول مرة حيث استطاع أن يتفاهم مع الهنود الحمر عن طريق الإشارة .

والشعوب البدائية تتخاطب فيما بينها عن بعد بالإشارة ، مستخدمين دقات الطبول ، وإشعال النيران ، وقد تعلمت منهم الشعوب المتحضرة هذه اللغة منذ أقدم العصور ، فكانت الطبول ، وإشعال النيران وتحريك الأعلام ، وسيلة للتخاطب عن بعد ، حتى إذا كان العصر الحديث عصر الكهرباء والتلغراف والتليفون ... بدأ التخاطب يجرى على البعد من خلال الإشارات الصوتية التى اشتهرت باسم « إشارات مورس » . فالتفاهم بالإشارة ، ابتداء من تحريك اليد ، حتى اصطناع الرموز المتفق عليها عالمياً هو وسيلة عالمية من وسائل التفاهم بين البشر على اختلاف درجاتهم من المدنية والحضارة مما يؤكد قدرة البشر على الالتقاء والتفاهم حتى لو لم تكن لهم لغة ملفوظة مشتركة .

اللغة الملفوظة :

على أن الذى لا شك فيه، أن لغة الإشارة وإن استطاعت أن تسد بعض حاجات الانسان المادية الأساسية ، فهى قاصرة عندما يراد بها التعبير عن أشياء لا عهد لأحد المتخاطبين بها من قبل، وهى عاجزة عن أن تصور أشياء غيبية أومجهولة . ومن هنا كانت اللغة الملفوظة هى وحدها الجديرة باسم اللغة حيث أصبح كل صوت يرمز لمسمى معين، وإذ كان لاحد لما يستطيع الإنسان أن يحدثه من أصوات، فقد أصبح بقدرته أن يضع من الرموز الصوتية بقدر ما فى الكون من مسميات .

ولا ينبغى التشكك بحال فى أن اللغة الملفوظة قد بدأت كلغة الإشارة، لغة واحدة يعرفها أبناء البشر الذين كانوا أول من نطقوا وتفاهموا .

وإذا كانت التوراة تقول لنا « وكانت الأرض كلها لغة واحدة وكلاماً واحداً » وإذا كان القرآن الكريم يؤكد هذا المعنى بقوله « وعلم آدم الأسماء كلها » فإن منطق الأشياء يقطع بأن الأمر كان كذلك . فما دام الأصل فى الجنس البشرى هو التسلسل من أصل واحد مشترك ، فإن الأبناء قد تلقوا دائماً اللغة عن آبائهم ، وإذا كانت اللغات قد تفرقت وتعددت فيما بعد فذلك أمر طبيعى جداً نظراً للأسباب التى تؤدى إلى تطور اللغات وتعدد اللهجات مما سنعرض له فيما بعد .

ولقداستطاع علماء اللغة اكتشاف الأصل المشترك للعديد من اللغات ، فيتتبعون تفرع اللغات الإسبانية والإيطالية والفرنسية من اللغة اللاتينية ، ثم يتتبعون اللغة اللاتينية نفسها ، فيرونها فرعاً من اللغات « الهندية الأوربية » التى تشمل فيما تشمل اليونانية والسنسكريتية . ويتتبعون عدداً من اللغات الأخرى كالعربية والعبرية والأرامية والأمهرية والمصرية القديمة فيرونها

ترجع كلها إلى لغة واحدة يطلقون عليها اسم السامية . [١] ويتعقب بعض العلماء بعض الكلمات الأساسية فى حياة الإنسان فيجدونها واحدة فى كل اللغات أو بالأحرى تدور كلها حول صوت واحد مما يقطع بوحدة الأصل .

الأم :

فهذه كلمة الأم نجد أن الصوت الأساسى فيها هو حرف الميم وهى من أول الأصوات التى يتناغى بها الأطفال ، ولذلك فإن الكلمات التى ترمز للأم فى مختلف اللغات تحتوى على حرف الميم هذا ، فهى فى اللغة العربية أم كما تعرف ، وهى فى الفرنسية مير ، وبالإنجليزية موذر ، وبالسويدية مودر ، وبالألمانية موتر ، وبالروسيةمات ، وبالدانمركيةمودر ، وباللاتينية ماتر ، وبالإغريقية موتر ، وبالإيطاليةمادرى ، وبالإسبانية مادرى ، والبرتغالية مادرى ، وبالسنسكيريتنية ماتا . . . وهكذا [٢] .

---

(١) يرجع علماء اللغة المحدثون اللغات المختلفة إلى ثلاثة فروع أساسية .
- الهندية الأوربية .
- السامية .
- الفينذية (نسبة إلى فنلندا) .
- خليط من اللغات لا يستطيعون وضعه تحت أى من هذه التقسيمات

(دائرة المعارف البريطانية)

(٢) تاريخ الجنس البشرى – ص ٢٥ .

سماء وأرض وشمس :

والحرف الأول من كلمة سماء هو حرف السين ، فإذا جئنا إلى اللغة الإنجليزية وجدنا حرف السين هو نقطة بدايتها كذلك « سكاى Sky » وفى الفرنسية تبدأ بحرف السين « Ciel » وقد تحل الشين محل السين فى بعض اللغات ، والاتفاق على أن السين والشين يتبادلان دائماً .

وكذلك كلمة أرض ، فإن حرف الراء أو بالأحرى صوت الراء نجده فى كثير من الكلمات الدالة على الأرض فى اللغات المختلفة ، فهى فى الإنجليزية ارث earth ، وهى فى الفرنسية تر terre ، وهى فى الألمانية أرد erde.

وبالنسبة لكلمة الشمس نجد الصوت الدال على السين أو الشين فى أغلب الكلمات الدالة على الشمس فى مختلف اللغات ، فهى فى اللغة الإنجليزية سن sun ، وهى فى اللغة الفرنسية سولى soliel ، وهى بالإيطالية شيولو ، وهى شمس فى اللغة الآرمية ، وهى شمسو باللغة الأكادية ، وشمس باللغة العبرية ، ولمن أراد المزيد من هذه الكلمات فعليه أن يطالع الكتب المختصة فى هذه الموضوعات .

انحصار الوحدات الصوتية للإنسان :

والرأى العلمى اليوم ، بعد أن أصبحت اللغات لا تدرس إلا باعتبارها أصواتا ، متفق على وحدة الأصل لجميع اللغات ، وهى هذه المجموعة المحدودة من الأصوات التى تصدر من الحنجرة البشرية المؤلفة من الرئتين والقصبة الهوائية والتجويف الفمى واللسان والشفتين ، ويتراوح عدد الأصوات من ٢٢ ــ ٢٦ صوتاً يحدث اختلافها نتيجة وضع اللسان ومدى التصاقه بالحلق أو الأسنان ، وفتح الفم أو إغلاقه وتدويره ، ودرجة خروج

الهواء من الفم أو الأنف وهكذا ... وهذه الأصوات هى التى نطلق عليها اسم الحروف الأبجدية ، وهى التى يطلق عليها الآن اسم « الفونتكس » ولم تعد دراسة اللغات تعتمد على الكتب والمخطوطات والأعمال المكتبية ، وإنما تدرس اللغات الآن فى المعامل و بواسطة استعمال آلات التسجيل والمكبرات الصوتية ، فاللغة الملفوظة لا المكتوبة هى التى أصبحت محور الاهتمام فى دراسة اللغات، على أساس أن الكتابة ليست سوى اختراع حديث جداً بالنسبة للغة . . فإذا كان الإنسان ينطق باللغة منذ مليون سنة على أقل تقدير ، فإن الإنسان لم يعرف اللغة المكتوبة إلا منذ ستة آلاف سنة فقط وهو عمر لا يكاد يذكر بالنسبة لعمر اللغة الملفوظة . إن شأن اللغة الكتابية بالنسبة للغة الملفوظة ، كمثل الأصوات الموسيقية عرفها الإنسان مذ كان إنساناً ، عندما أطلق حنجرته لأول مرة يشدو بالغناء ، بل عرفها وهو يستعمل أول ما عرف من آلات موسيقية ، ولكنه لم يستخدم النوتة لكتابة الموسيقى إلا منذ عهد قريب جداً .

وحتى فى عصرنا الحديث فإن الذين يقرءون ويكتبون من البشر بالنسبة لمن لا يقرءون أو يكتبون ، هم العدد الأقل .

وكم من لغات محفورة على الصخور والآثار ، بل تتضمنها بعض الكتب لاتجد من يهتم بها هذه الأيام فضلا عن أن يتكلم بها فهى فى عداد اللغات الميتة ، لأن اللغة الحية هى التى يتكلم بها . وعلى رأس هذه اللغات الميتة لغات عظيمة ورائعة كاللغة اليونانية القديمة أو اللغة المصرية أو اللغة الحميرية ، بل إن لغة كانت لغة أوربا كلها فى عصر من العصور كاللغة اللاتينية ، أصبحت اليوم فى عداد اللغات الميتة ، حيث لا يتعلمها إلا الدارسون والعلماء الذين ينقبون فى التاريخ .

فعلماء اللغة المحدثون لا يعنون إلا باللغة الملفوظة عند محاولتهم تقويم أى لغة ، وهذه اللغات الملفوظة تؤكد بوضوح وحدة المادة الصوتية التى تألفت منها اللغات .

الأسباب التي تؤدى إلى اختلاف اللغات وتعدد اللهجات :

حاول الكثيرون ، أن يتخذوا من اختلاف اللغات ، سبيلا للقول بتقسيم الجنس البشرى إلى أمم وجماعات ، بحيث يؤلف المتكلمون بلغة معينة أمة واحدة ، تختلف شخصيتها عن باقى الجماعات الإنسانية الذين يتكلمون بلغة أخرى ... مرجعين الاختلاف فى اللغات إلى خلاف أساسى فى مقومات الشعوب وخلق الفوارق فيما بينها .

وسيكشف لنا البحث العلمى فى الكيفية التى تفترق فيها اللغات وتتعدد وتتنوع عن زيف هذا التصور ، فاللغة أى لغة ، هى فى تغير وتبدل دائمين ، ينتهى دائماً إلى تفرعها إلى لهجات جديدة بلغات متباينة ، بحيث كان يمكن أن تظل هذه العملية إلى ما لا نهاية لولا قيام العوامل المضادة التى تحول دون ذلك. ففى قارة مثل أفريقيا يبلغ عدد لغاتها ولهجاتها رقماً يتراوح بين ٦٠٠ ـــ ٨٠٠ لهجة ولغة . . . وقد تفرع هذا العدد العديد من ثلاثة أصول رئيسية ، وهى : السواحلية فى شرق أفريقيا ، والهوسا فى غرب أفريقيا واللانجالا فى الكونغو ، ومن هذه الأصول الثلاثة تفرعت كل هذه الفروع .

ومثل ذلك يقال عن باقى لغات العالم ولهجاته التى تتراوح بين ٢٥٠٠ ـــ و ٥٠٠٠ لغة ولهجة . فهذا العديد من اللغات واللهجات يرتد بدوره إلى ثلاثة أصول رئيسية على ما يقول علماء اللغة المحدثون وهى الهندية الأوربية ـــ والسامية ـــ والفنلندية .

وهذا التنوع والتعدد يتم بطريقة تلقائية كنتيجة حتمية لنواميس الطبيعة والحياة التى تأبى إلا أن تجعل لكل كائن حى ابتداء من أصغر خلية نباتية حتى أكمل صورة إنسانية شخصيته المستقلة التى تختلف عن أقرب شخصية إليها .

ويقع هذا الافتراق والخلاف بين الكائنات الحية، وسيظل يحدث ما بقيت الحياة، إلى عوامل متعددة :

الأول : العامل الوراثى ، الذى يجعل كل وليد يرث بعض خصائص والديه على ما فصلنا فى الفصل السابق ، والذى يجعل تركيبه الجسدى مختلفاً عن تركيب كل من الأب أو الأم . . ولما كانت الحبال الصوتية هى أحد أجزاء الجسد فإن الاختلاف يقع فيها ، كما يقع فى كل أجزاء الحنجرة ، ومع الاختلاف فى تركيب الجهاز الصوتى يقع الخلاف فى الأصوات الصادرة عنه كما سنرى .

الثانى : تأثير البيئة الجغرافية على الكائن الحى بتأثيرات تختلف باختلاف الطبيعة فالذين يعيشون فى الصحراء يتأثرون بمؤثرات غير الذين يعيشون على شواطئ بحر أو نهر أو فوق قمة جبل ، والذين يعيشون فى المناطق الباردة يتأثرون بمؤثرات غير الذين يعيشون فى المناطق الحارة وهكذا.

الثالث : وضع الإنسان الاجتماعى ، أى مكانه ودوره الذى يؤديه فى المجتمع ، فكما أن البيئة الطبيعية تحدث أثرها فى الإنسان فكذلك الشأن بالنسبة للبيئة الاجتماعية .

وقد ترتب على هذه العوامل الثلاثة ، وسيظل يترتب عليها ، أن تختلف اللغات واللهجات وتظل تتعدد بمقدار ما فى البشر من جماعات بل بمقدار ما فيها من أفراد ، ولنبحث هذه القضية بشىء من التفصيل .

الجهاز الصوتى :

قدمنا من قبل أن الحنجرة البشرية قادرة على إحداث عدد من الأصوات المختلفة المتباينة يتراوح ما بين ٢٢ — ٢٦ صوتاً ، وهى الأصوات التى يؤلف كل منها حرفاً خاصاً من حروف الأبجدية . على أن الإنسان

لكى يكون قادراً على إحداث هذه الأصوات كلها يجب أن يكون جهازه الصوتى ابتداء من الرئتين حتى القصبة الهوائية والحنجرة واللسان والأسنان والشفتين فى حالة صحة وكمال . بل أن يكون استعداده لتعلم اللغة كاملا كذلك ، لأن اللغة يتحصل عليها بالتعلم والاكتساب وليس بالغريزة . وعلى ذلك يكفى أن تكون إحدى أسنان الإنسان مكسورة ، بل يكفى أن يزيد مقدار الانفراج بين الأسنان الأمامية لكى لا يكون باستطاعة الإنسان أن يخرج الأصوات المطلوبة بالكمال والدقة المعينين لإخراج الأصوات المختلفة ، وكذلك الشأن إذا كان باللسان نقص فى أداء حركاته ، فإنه يترتب على ذلك اختلاف فى النطق . . ونحن نرى فى حياتنا اليومية أشخاصاً كثيرين لا يستطيعون أن ينطقوا حرف (الراء) فينطقونه (غيناً) ، أو حرف القاف فينطقونه (كافا). وحرف (الثاء) فينطقونه (سيناً)أو السين إذ ينطقونها ثاء . . وهكذا ، وبعض الجماعات ، لا تستطيع أن تنطق حرف (الحاء) أو الضاد نتيجة خلو لغتها من هذين الحرفين ، فى حين يكثران فى لغات أخرى وهكذا .

وهناك أصوات يستثقلها الناطقون ، ويستخفون أصواتاً فيستبدلون هذه بتلك ، كما يحدث فى لغتنا اليومية حيث نستبدل حرف الثاء (لثقله) إلى حرف التاء ، فنرانا نقول « تعلب بدلا من ثعلب ، وتوب بدلا من ثوب ، وتلج بدلا من ثلج ، وتعبان بدلا من ثعبان ، وتلاتة بدلا من ثلاثة . . . وهكذا .

وكذلك استخفاف حرف الدال عن الذال ، فنرانا فى حديثنا اليومى نقول « دهب بدلا من ذهب ، ودبح بدلا من ذبح ، ودراع بدلا من ذراع ، وديل بدلا من ذيل إلخ وكذلك الضاد بدلا من الظاء ، فنقول ضلام بدلا من ظلام ، وضفر بدلا من ظفر ، وضهر بدلا من ظهر . .

أو استبدال القاف بهمزة فنقول : آلت بدلا من قالت ، وفرأعت بدلا من فرقعت وهكذا .

هذا الخلاف فى الأجهزة الصوتية ومدى كمالها وصلاحها ، والرغبة فى تسهيل النطق واستثقال بعض الأصوات دون البعض الآخر ، وما ترتب على ذلك من آثار يعددها ويفصلها علم اللغات كالقلب والإدغام والحذف . . إلخ ، كان هو أول ما أدى إلى تنويع الحروف الأبجدية وطريقة النطق ، مما أحدث اللهجات المختلفة الخاصة بكل جماعة ، وكل طائفة وكل فئة .

اختلاف البيئة الطبيعية والجغرافية :

أما ثانى العوامل التى تؤدى إلى التمايز بين اللغات ، فهو انتشار الإنسان وانطلاقه من بيئته الأصلية إلى بيئات جديدة ، حيث تصادفه ظروف جديدة ، ومعالم جديدة ، ومشاكل لا عهد له بها من قبل ، فيدفعه ذلك إلى نحت كلمات جديدة ليطلقها على هذه المسميات الجديدة ، أو يستعمل الكلمات القديمة استعمالات جديدة ، فالذين رأوا البحر لأول مرة هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم ، على حين يظل هذا الاسم لا مدلول له عند من لم ير البحر ، والذين شاهدوا منتجات البحر لأول مرة كان عليهم أن يطلقوا عليها الأسماء التى لا يعرفها من لم يروا هذه المنتجات ، والذين رأوا الأشجار والغابات والحيوانات والحشرات والظواهر الجوية لأول مرة كان عليهم أن يطلقوا الأسماء الأولى لهذه الظواهر والمسميات .

وهكذا أصبح موجوداً لدى أى جماعة ، مجموعة من الأسماء لا يعرفها غيرهم ممن لم تتح لهم رؤية ما رأوا . ومن مجموعة هذه الألفاظ الجديدة ، والطريقة الخاصة بالنطق بها تتولد اللغات المختلفة .

اختلاف البيئة الاجتماعية :

وليس أدل على أن هذا الخلاف الذى ينشأ بهذا الأسلوب لا يعنى بحال أى اختلاف بين البشر وإنما هو لون من ألوان التنوع الذى هو سمة الحياة ، أن الجماعة الواحدة فى ظل البيئة الجغرافية الواحدة التى تقع كلها على شاطئ البحر ، أو على قمة الجبل ، أو فى أحشاء الصحراء والتى تتكلم كما يقولون بلغة واحدة ، سرعان ما يختلف أفرادها بدورهم فيصبح لكل جماعة فرعية لهجتها الخاصة . ذلك أن أفراد أى جماعة من الجماعات يختلفون فى كل شىء . . فى أعمارهم ، فى حرفهم وأعمالهم ، فى حظهم من التعليم والثقافة ، فى حظهم من السلطة والأهمية الاجتماعية ، فالذين يشتغلون بالصيد سرعان ما يؤلفون كلمات خاصة بهم ، والذين يزرعون الأرض يؤلفون كلمات خاصة بهم ، والتجار والفنانون والمغنون والمحامون والقضاة والمهندسون ، بل حتى المجرمون واللصوص الذين يستترون من القانون ويرتكبون جرائمهم فى الظلام سرعان مايصطنعون لأنفسهم لغة خاصة يتفاهمون بها فيما بينهم ولا يدرك معناها أو المقصود منها إلا من كان من طائفتهم . . ومن هنا قال علماء اللغات واللهجات ، إن اختلاف اللهجات واللغات يرجع إما إلى أسباب جغرافية إقليمية ، وإما إلى أسباب اجتماعية تنشأ عنها « اللهجات الاجتماعية » .

اللغة كائن حىّ :

فكأن تعدد اللهجات واختلاف اللغات عملية مستمرة دائمة لا تقف أبداً ، متطورة أبداً ، متغيرة أبداً ، باعتبارها أحد مظاهر الحياة لها كل خصائص الحياة ، فهى تتغذى وتنمو وتتلاقح ، وهى تموت كما يموت كل كائن حى ، حيث تتحول إلى بطون الكتب ولا تعود تنطق بها الشفاه.

وكما أن علم الحياة يقول لنا إن الجسم الحى تموت بعض خلاياه فى كل لحظة ، كما تتولد فيه خلايا جديدة فى كل لحظة كذلك ، فهكذا الشأن بالنسبة للغة ، فى كل لحظة من لحظاتها تولد كلمات جديدة ، كما تموت فى كل لحظة كلمات ، ويعنى بالكلمات التى تموت ، تلك التى لا تجد إنساناً واحداً بين ألوف ملايين البشر من ينطق بها فى لحظة ، فإن ذلك يعنى أنها قد ماتت ووريت التراب أو بالأحرى بطون الكتب ، والكلمات التى تولد هى تلك التى ينطق بها فرد من الناس لأول مرة أو يكتبها . وحسب الإنسان أن يطلع على أى قاموس من قواميس اللغة ليراها محتوية على عشرات الألوف من الألفاظ المهجورة التى بطل استعمالها ، ولو استعملت فى جملة من الجمل لبدت نابية ميتة بالنسبة للألفاظ الحية التى تحيط بها ، ولم يكن باستطاعة أى قارئ أن يعيها إلا أن يخرج معناها من القاموس .

وهذا الأمر لا يختص بلغة دون لغة . . بل هو عام شامل للغات كلها بما فى ذلك اللغة العربية بطبيعة الحال .

فاللغة كائن حى يجرى عليها كل ما يجرى على الكائنات الحية من تغير وتبدل وتطور واتساع وانتشار ثم موت فى خاتمة المطاف .

والحق أنه لولا وجود عوامل أخرى مضادة تعمل على توفير أكبر قدر من الثبات والاستقرار وطول العمر للغة ، وتجعل الطابع الغالب على اللغة هو المحافظة والتمسك بأهداب القديم وإضفاء لون من القداسة عليه ، والحرص على استخدام هذا القديم ، نقول لولا هذه العوامل ، لكانت عوامل الفناء للغة أسرع مما هى عليه ، ولتبددت وتبلبلت الألسن وعز التفاهم بين القديم والحديث . وهذه العوامل التى تعمل على تدعيم اللغة وتثبيتها وإطالة عمرها ، تمثل فى الطبيعة القوى الجاذبة ، التى تؤدى دورها فى مواجهة القوى الطاردة . . القوى التى تفرق وتشتت وتبدد .

وظيفة اللغة الأساسية :

وأول هذه العوامل ، هو طبيعة وظيفة اللغة نفسها ، فاللغة كما قدمنا هى الأداة التى اخترعها الإنسان للتعبير عن إنسانيته وللتفاهم مع الجماعة التى يعيش فيها ، فيأخذ عنها ويعطيها وذلك لا يتحقق إلا بتحديد معنى الألفاظ ومدلولاتها . وقد أدرك الإنسان الأول بمجرد أن تلفظ بأول كلمة ذات مدلول خاص يفهمه عنه الآخرون ، ما فى هذه القدرة التى زود بها ، أو التى توصل إليها من سر عميق يعلو على الطبيعة العادية التى تحيط به ، ومن هنا كانت نظرته إلى بعض الألفاظ وتصوره انطواءها على قوة سحرية غامضة تسيطر بها على الطبيعة نفسها ، مما جعله يضفى عليها نوعاً من القداسة تعلو بها على سائر الكائنات . وقد كان هذا شأن الكلمة فى القديم وهو شأنها فى كل المجتمعات الفطرية حتى فى وقتنا الحاضر . فللكلمة سلطان وللكلمة تأثير ، وليس هناك شيء لا تستطيع الكلمة أن تحققه بما فى ذلك التأثير على الآلهة نفسها .

ويحمل كتاب العهد الجديد « إنجيل يوحنا » أثر هذا التقديس للكلمة حيث يبدأ بالعبارة المدوية التالية : « فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله » .

هذا التقديس للكلمة قد صانها من التبدد الذى كان يمكن أن تتعرض له ، وجعل البشر يستعملونها فى تقدير واحتراس ، وحرص على المحافظة عليها .

الكتابة :

وكان اختراع الكتابة بلا جدال أو شبهة أعظم العوامل فى العصور القريبة التى مكنت من المحافظة على وحدة اللغة وثباتها واستمرارها أطول مدة ممكنة فى القسم القريب من حياة الإنسان . وإذا كان تاريخ الكلام الإنسانى يرجع كما قدمنا إلى مليون سنة فأكثر ، فإن تاريخ الكتابة لا يرجع إلى أكثر من ستة آلاف سنة ، وهو كسر صغير جداً من حياة الإنسان ، وقد اخترعت الكتابة عندما أحس الإنسان بضرورتها لتخليد ذكراه ونقل سيرته وأعماله إلى من يجيئون بعده بطريقة لا يتناولها التحريف .

والرأى على أن أصل الكتابة قد نشأ فى مصر ، فاللغة الهيروغليفية هى أقدم كتابة عرفها البشر ، أما الخطوات الأولى التى نشأت منها الكتابة ، فقد بدأت مع الإنسان مذ كان يعيش فى الكهوف ، فمما لا جدال فيه أن أول محاولة للإنسان أن يرسم صورة لحيوان من الحيوانات على جدران كهفه كانت هى الخطوة الأولى نحو الكتابة . . . فقد أصبحت صورة الأسد ترمز للأسد ، وعلى هذا الغرار بدأت صورة أى شىء تدل عليه ، ثم بسطت خطوط هذه الصورة فاستغنى فيها عن التفاصيل ، ثم زيد فى تبسيطها فأصبح مجرد خطين متعارضين يرمزان للإنسان مثلا ، ودائرة ترمز للشمس ، وخط منحن للقمر وهكذا . . ثم بدأت هذه الرموز تأخذ صورة مربعات ومستطيلات وزوايا وتستخدم للدلالة على أصوات ، ومن هنا بدأت حروف الأبجدية الهيروغليفية .

وكما اعتبرت الكلمة الملفوظة من قبل مقدسة ذات تأثير لا حد له . . . فبعد اختراع الكتابة انتقلت القداسة من الكلمة الملفوظة إلى الكلمة المكتوبة . وهذا ما يجعلنا ندرك لماذا كان معنى الكتابة الهيروغليفية الكتابة المقدسة . وأصبح إيمان الناس لا حد له فى سحر الكلمة

المكتوبة وقدرتها على جلب النفع أو دفع الأذى مما نرى آثاره لا تزال موجودة بين الناس الذين يعتقدون بالأحجبة والتمائم التي تتضمن كلمات مكتوبة . وقد كانت هذه القداسة عنصراً فعالا فى المحافظة على اللغة وألفاظها وطريقة استعمالها [١] .

الكتب المقدسة :

وثالث العوامل التي تحفظ اللغات وتحول دون تشتتها وتبقى على جوهرها هي الكتب المقدسة ، وقد رأينا من قبل أن الكلمة الملفوظة كانت مقدسة ، ثم تلتها الكلمة المكتوبة فأصبحت هى المقدسة ، فكان من الطبيعي أن تمتد القداسة إلى الكتب ، فأى كتاب فى القديم كان يعتبر مقدساً ، ولم تكن القداسة تلحق الكلام المكتوب ، بل تشمل الكتاب نفسه بورقه وجلده ، فكان الهنود يعتقدون أن كتابهم الفيدا من عند الله ومن صنعه ونعنى بالكتاب مادة الكتاب التى صنع منها ، وكذلك الشأن بالنسبة لكل المجتمعات القديمة ، فكتاب اليهود القديم كان يعتبر أنه من عند الله ، وليس يعنى ذلك أحكام الكتاب أو ألفاظه ومعانيه بل المادة المصنوع منها الكتاب نفسه وهى الأحجار وهكذا .

---

(١) لعبت العوامل الطاردة . . . عوامل التغيير والتطوير والتنويع دورها فى الكتابة كما لعبت من قبل فى اللغة الملفوظة ، حيث بدأت تتغير كلما نقلت من مكان إلى مكان ، ومن شعب إلى شعب ، إلى أن تعددت صور الحروف الهجائية وأشكالها ، ولم تلبث الكتابة أن تحولت إلى سلاح ذى حدين يعمل فى الاتجاهين المضادين ، فهى من ناحية تعمل على تثبيت اللغة والمحافظة عليها ، ولكنها من ناحية أخرى تساعد على تعميق الفوارق بين اللغات وتأكيدها ، وهى التى خلقت الشعور الخاطئ بوجود فوارق أساسية بين اللغات .

وغنى عن البيان أن هذه الكتب اعتبرت دائماً أصولا للغة يجب ألا تعدوها وإلا اعتبر ذلك تجديفاً فى حق الله ، فكان لذلك أعظم الأثر فى المحافظة على اللغات التى كتبت بها هذه الكتب .

ويلحق بالكتب المقدسة ، كل الكتب القديمة حتى ولو كانت من تأليف البشر ، فإن قدمها قد أضفى عليها جو القداسة كما هو الشأن فى إلياذة هوميروس وأوديسيته فقد اتخذ منها الإغريق أساساً لعقائدهم وتاريخهم ولغتهم وأصبحت لديهم شيئاً مقدساً لعبت دورها فى صيانة اللغة الإغريقية قروناً من الزمان .

وعلى غرار هوميروس فإن العباقرة من رجال الفن فى كل أمة قد اعتبرت كتبهم دائماً شبه مقدسة من حيث إنها أساس للغة وألفاظها وأساليبها ، كما هو الشأن بالنسبة لشعراء الجاهلية بالنسبة للعربية ، ودانتى فى الإيطالية ، وشكسبير فى الإنجليزية الحديثة وجوته فى الألمانية الحديثة .

على أن عوامل التغير والتبدل كانت لها الكلمة الأخيرة فى النهاية ، فاللغة الهيروغليفية المقدسة ، واللغة الإغريقية ، وجميع اللغات القديمة والكتب المقدسة القديمة من أمثال الفيدا الهندية ولغتها السنسكريتية ، والأفستا الفارسية ، كل هذه الكتب قد زالت ودالت ، وتشتت اللغات وتنوعت وتعددت اللهجات بحكم العوامل الزمنية والمكانية وتطور المتطلبات الإنسانية المتغيرة أبداً .

القرآن الكريم :

ولعل القرآن الكريم يعتبر فى أيامنا ، ومنذ قرون خلت فريداً وفذاً بين ما عرفت البشرية من كتب مقدسة . فقد ظل بنص ثابت واحد لم يعتوره أى تحريف فضلا عن تغيير وتبديل ، ومهما نقب الإنسان وبحث وفتش

فى أرجاء العالم الإسلامى الذى يمتد عبر القارات الست ، ومهما عاد إلى الوراء عبر الزمن خلال أربعةعشر قرناً إلاقليلا ، فلن يجد إلا نصًّا واحداً وكتاباً واحداً هو القرآن الكريم المكتوب باللغة العربية . وهى ظاهرة تتصل بإعجاز القرآن وينفرد بها كما قدمنا ، فإن الكتب الأخرى التى اعتبرت مقدسة ، قد ترجمت إلى شتى اللغات ، واعتبرت الترجمة دائماً أساساً وأصلا للغات التى نقل إليها ، ومن هنا لم تقم هذه الكتب فى حياة اللغة التى كتبت بها فى الأصل بالدور الذى قام به القرآن ، وما زال يقوم به وسيظل يقوم به فى حفظ اللغة العربية ، حيث يحرص المسلمون حتى من كان منهم لا يعرف العربية على تلاوة القرآن بلغته العربية ، إذ لا تصح له عبادة بصفة عامة والصلاة بخاصة إلا بتلاوة القرآن .

والقرآن والقرآن وحده ، هو الذى يجعل باستطاعتنا أن نطالع كتباً كتبت منذ ألف سنة دون أن نجد فى مطالعتها كبير صعوبة ، وهو ما لا يتحقق فى كثير من تراث اللغات الأخرى بالنسبة لقرائها العاديين .

تدخل السلطة المركزية :

أما رابع العوامل التى تؤدى إلى حفظ اللغات وإطالة بقائها ، فهو عمل السلطة المركزية صاحبة السلطان فى الجماعة ، سواء كانت هذه السلطة تقوم على زعامة دينية أو قيادة سياسية أو تسلط أجنبى ، فقد كان لهذه السلطة دائماً أثر فى تدعيم أى لغة من اللغات ، وفرض سلطانها على أوسع رقعة ممكنة ، وأطول مدة ممكنة كذلك .

وأغلب اللغات التى تسود أوربا فى الوقت الحاضر من فرنسية وألمانية وإنجليزية وإيطالية وبلغارية وصربية ورومانية . . . إلخ والتى تتخذ أساساً للتفريق بين شعوب أوربا باعتبارها أمماً مختلفة وقوميات متباينة ،

ليست كلها إلا من فرض السلطات المركزية على الخاضعين لحكمها ، حيث استثارت لهجات معينة وجعلت منها لغات ، وراحت تدرس بها فى المدارس وتعلو بها الصلوات فى المعابد ، ويجرى التعامل بها فى دواوين الحكومة . . فتصبح بعد حين لغة قومية تحل محل لغات أخرى كان التعامل يجرى بها ، فاللاتينية كانت لغة أوربا خلال العصور الوسطى ، حتى إذا جاء عصر القوميات فى القرن التاسع عشر ، بدأ كل جماعة يخصون أنفسهم برفع لهجتهم الخاصة إلى مرتبة اللغة القومية ، وبدءوا يؤسسون على ذلك أوهاماً من حيث امتياز لغتهم ، نتيجة لرقى جنسهم . ولعل أقرب مثل يظهرنا على دور السلطة المركزية فى بسط سلطان اللغات ، هو ما حدث فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد كان المهاجرون إلى الولايات المتحدة من سائر شعوب أوربا وآسيا ، وكل يتكلم بلغته الخاصة ، حتى قررت السلطة المركزية أن تكون اللغة الرسمية للدولة الجديدة هى الإنجليزية ، فأصبحت هى دون غيرها لغة الولايات المتحدة الأمريكية ، مع أنه كان من الممكن أن تكون اللغة التى تسود هى الألمانية أو الفرنسية أو أى لغة جديدة غير هذه وتلك .

وعندما استعمر الانجليز الهند ، فرضوا اللغة الإنجليزية لغة رسمية للبلاد ، ولقد خرج الإنجليز من الهند منذ عشرين سنة تقريباً ، ومع ذلك فلاتزال اللغة الإنجليزية هى اللغة الرسمية فى كثير من أنحاء الهند ، ذلك أن كل أعمال الدولة كانت تجرى بالإنجليزية وكل الموظفين والمثقفين قد تلقوا علومهم بالإنجليزية فأصبح من الصعب عليهم ترك الإنجليزية إلى لغتهم القومية الأصلية إلا بعد انقضاء عشرات من السنين تخرج فيها أجيال تلقت علومها باللغة الهندية .

ومثل ذلك ينطبق على اللغة الفرنسية فى الجزائر ، حيث فرضها الفرنسيون لتكون اللغة الرسمية ، والتى يجرى بها التعليم ، واليوم — وبعد أن

استقلت الجزائر – هى فى حاجة لعديد من السنوات قبل أن تصبح العربية هى التى يجرى بها التعليم العالى .

اللغة أداة للإنسانية كلها :

ولعلنا قد رأينا من كل ما سبق ، ومن استعراض العوامل التى تؤدى إلى تنوع اللغات وتفرقها بل إلى موتها ، والعوامل التى تعمل على حفظها وصيانتها من ناحية أخرى ، أنها لا تعدو أن تكون كما قلنا منذ البداية أنها أداة من خلق العقل الإنسانى ، ذلك الجوهر الغامض ، كأى أداة أخرى اكتشفها أو اخترعها ليستخدمها فى إشباع حاجاته ، وإثبات ذاته ، وتحقيق حياة أفضل وأكمل ، باعتباره مجرد إنسان ينتمى إلى الجنس البشرى ، وليس لأمة معينة أو جماعة بذاتها .

وعلى ذلك فكل محاولة لتصوير اختلاف اللغات على أنه نتيجة فوارق طبيعية بين أجناس البشر ، وكل محاولة لتحويل اللغات المختلفة إلى سدود وقيود تحول دون الاعتراف بحقيقة الجنس البشرى وأنه ينحدر من أصل واحد مشترك ، ويتكلم لغة إنسانية واحدة ، هى محاولات عقيمة فضلا عن أنها ضارة .

ما من لغة إلا هى حصيلة التراث الإنسانى كله :

وليس أدل على أن البشر جميعاً يتكلمون لغة واحدة إنسانية وإن اختلفت طريقة نطق أى إنسان بها ، من أنه ما من لغة من لغات الأرض إلا تعكس التراث الإنسانى كله لا تراث جماعة مخصوصة أو أمة من الأمم .

ولا عجب فى ذلك ، فقد نشأت اللغات كما رأينا من أصل واحد ، ونشأت كلمة كلمة ثم جملة جملة ، وتألفت لغة أى جماعة من هذه الكلمات الموروثة مضافاً إليها ما تضيفه هذه الجماعة من كلمات جديدة ، وهكذا مهما تنقلت اللغة عبر الزمان والمكان فهى لا يمكن إلا أن تتألف من تراث سابق زائد إضافات جديدة ، وهذا التراث السابق ظل لمئات الألوف من السنين يمثل تجربة الإنسانية كلها والتى كانت لا تزال تتألف من عدد محدود فى بقعة من الأرض ضيقة ، قبل أن يتكاثر الإنسان ويسبح فى أرجاء الكوكب الأرضى .

اللغة العربية :

ولعل اللغة العربية التى يخيل للكثيرين أنها ذات طابع خاص، هى أكبر دلالة على ما قدمناه من أن اللغة أى لغة هى حصيلة التراث الإنسانى كله ، هى مزيج من كل الأصوات التى نطق بها الإنسان كل إنسان عبر التاريخ للتعبير عن مختلف المسميات المادية وغير المادية .

ولنبدأ مع اللغة العربية عندما خرجت من جزيرة العرب تحت لواء الإسلام ، لتدخل إلى الشام والعراق وفارس ومصر وشمال أفريقيا ، فقد جاءت اللغة العربية إلى هذه البلاد بذخيرتها من الألفاظ والرموز الصوتية الدالة على معانى ، فوجدت فى هذه البلاد كلها أصواتاً أخرى ترمز بدورها على مسميات ومعانى لا عهد للعرب بها من قبل ، فلم يكن هناك مناص من أن تستوعب اللغة العربية كل هذه المسميات الجديدة ، دون أن تحدث بها أى تغيير إلا هذا التغيير الطبيعى الذى يحدث دائماً وهو أن يلفظ الإنسان الكلام بالطريقة التى اعتاد أن ينطق بها . ولم يكن باستطاعة نسابى العرب ومؤرخيهم إذا تحدثوا عن أنساب الشعوب وتواريخها

إلا أن يكرروا أسماء الأشخاص والأماكن والوقائع كما تقال لهم وأن يصبح ذلك كله جزءاً من اللغة العربية ، ولم يكن باستطاعة جغرافيي العرب وهم يجوبون الآفاق ، وهم يصعدون الجبال ويخترقون الوديان ويخوضون البحار ويرون من حيوانات ونباتات ، إلا أن يرددوا أسماء هذه الأماكن والبقاع بلغة أصحابها العائشين بالقرب منها ، وتصبح الأسماء هذه كلها كلمات عربية .

وعند ما ذهبوا إلى أبعد من ذلك فبدءوا ينقلون علوم هذه الشعوب وآثار من سبق ، فترجموا عن الفارسية والهندية واليونانية ، لم يكن فى استطاعتهم إلا أن ينقلوا العلوم الجديدة التى لا عهد لهم بها من قبل ، بأسمائها ، وأن ينقلوا اصطلاحات هذه العلوم بألفاظها التى وضعت لأول مرة من أجلها ، غير محدثين فيها من تغيير إلا التغيير اللازم لإحسان نطقها وإعرابها وتصريفها بوضعها فى القالب العربى على الأوزان العربية واستخدام الحروف الأسهل . وعن هذا الطريق دخلت كلمة الفلسفة والفيلسوف والإيساغوجى والإصطقس وعشرات بل مئات من الكلمات التى تصادف دارس الفلسفة فى الكتب العربية .

وعند ما نقلوا علم الطب عن جالينوس وسقراط ، لم يكن باستطاعتهم إلا أن ينقلوا أسماء الأمراض كما نطق بها جالينوس ، وأن يستعملوا أسماء الأدوية الجديدة عليهم بأسمائها الإغريقية .

وهكذا كان الشأن وهم ينقلون عن هذه المجتمعات كلها نظمها وعلومها . إذ لم يكن أمامهم إلا استعمال الألفاظ المستعملة نفسها ، فإذا كان الدرهم والدينار أسمى العملة المتداولة وهما كلمتان روميتان ، أو بالأحرى يونانيتان فإنهما يصبحان كلمتين عربيتين بعد أن تصاغا هذه الصياغة لتناسب الوزن العربى والنطق العربى .

وعندما ينظمون الدواوين فلا مناص من استعمال هذه الكلمة الفارسية التى ترمز لهذا النوع من التنظيم، وعندما ينظمون البريد مثلا فلا مناص من استعمال هذه الكلمة الفارسية التى تطلق على الأفراس أو البغال التى كانت تنقل البريد .

ومن هذا الطريق استوعبت اللغة العربية كل التراث الإنسانى الذى ساهمت فى تكوينه جميع الشعوب .

وهذه الحقيقة الخاصة بتأثر اللغة العربية بعد الإسلام باللغات المختلفة ، من الأمور التى يسلم بها جميع الباحثين فى اللغة العربية ، ولكن الجديد والطريف فى الوقت عينه ، هو أن يعرف أن تأثر اللغة العربية بسائر لغات العالم لم يحدث فقط بعد الإسلام، بل إنه كان قبل الإسلام وإبان الجاهلية بحيث إن ألوف الكلمات التى يتصور المتصورون أنها عربية ممعنة فى العروبة ، ليست فى حقيقتها إلا كلمات فارسية أو لاتينية أو يونانية أو هندية أو حبشية وهكذا .

ولا ينبغى أن يفاجأ أى قارئ بهذا الذى نقوله فليس ذلك إلا تطبيقاً لما جعلناه عنواناً لهذه الفقرة من أن اللغة لا يمكن أن تكون إلا حصيلة التراث الإنسانى كله . ولو استحضرنا فى أذهاننا أن العرب أقوام يعيشون فى الصحراء عيشة بدائية بحتة ، حيث لا علوم أو فنون أو صناعات فضلا عن حضارة ، فباستطاعتنا أن ندرك أن كل ما جاء فى اللغة العربية منذ الجاهلية من أسماء أنواع الملبوسات والمفروشات والمطاعم والأدوات والمهمات والأدوية وغيرها لا يمكن إلا أن تكون مستوردة من الخارج بعد ما نطقت بأصوات العرب ووضعت فى قوالبهم وأوزانهم .

فعندما نجد فى العربية القديمة أسماء الزهور من أمثال الآس والياسمين والنرجس والبنفسج والجلنار والسوسن والقرنفل والورد.. فلا يجب أن ندهش ، إذا علمنا أن هذه كلها كلمات فارسية الأصل فليس فى صحراء العرب

زهور . . وكان على العرب عندما يرون هذه الزهور لأول مرة أن يكرروا الأصوات التى قيلت لهم باعتبارها أسماءها .

وعندما نجد فى العربية القديمة كلمات تدل على مواد العطارة كالفلفل والكراوية والزنجبيل والقرفة والكافور والمسك والعنبر والصندل . . . إلخ

أو أسماء مختلف أنواع الأقمشة كالخز والديباج والإستبرق والسندس .

أو أسماء الأحجار الكريمة كالياقوت والزبرجد والفيروز والبلور والماس

أو أسماء الأطعمة كالكعك والسميذ والفالوذج والموذنج والجلاب . إلخ

أو الأدوات المصنوعة ، كالكوز والإبريق والطشت والخوان والطبق والقصعة . . .

أو أسماء بعض الآلات والمهمات كالقبان والإصطرلاب والإزميل والقسطل والقنطار والترياق والقنطرة والقسطاس والصراط والفندق .. إلخ

بل إن بعض الكلمات الدينية نفسها ككلمة نبي وفردوس وجهنم نجدها مأخوذة إما من العبرية أو الحبشية أو اليونانية[1] .

القرآن والكلمات الأعجمية :

وقد تصور كثير من علماء المسلمين منذ عصر مبكر أن هذه الحقيقة ، وهى أن العديد من الألفاظ العربية مستمد فى حقيقته من اللغات الأعجمية ، يتعارض مع ظاهر القرآن ، من أنه قرآن عربي نزل باللغة العربية ولا يستعمل غير كلمات عربية « إنا أنزلناه قرآناً عربياً » . . .

---

(١) اقرأ كتاب اللغة العربية لجورجى زيدان وتعليقات الدكتور مراد كامل أستاذ اللغات السامية على هامش هذا الكتاب .

والحق أن هذا الأمر لا يؤلف إشكالا من أى نوع كان ، فالعربية هى ما كان العرب يتكلمون بها ، وما دامت هذه الألفاظ كانت جارية على ألسنتهم ، وفق النطق العربى موزونة على الموازين العربية ، معربة بالإعراب العربى ، فهى كلمات عربية ولم تعد أجنبية ، وفى هذا يقول ابن جنى فى الخصائص : « إذا قلت طاب الخشكنان (كلمة فارسية تعنى البسكويت) فهذا من كلام العرب لأنك بإعرابك إياه قد أدخلته كلام العرب »[1] .

وقد بحث العلامة الإمام الأسيوطى هذا الموضوع . . موضوع الكلمات الأعجمية فى القرآن فى كتابه الاتقان فقال ما ننقله عنه فيما يلى :

« وأقوى ما رأيته فى الموضوع وهو اختيارى ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبى ميسرة التابعى الجليل قال (فى القرآن من كل لسان) وروى مثله عن سعيد بن جبير ووهب بن منبه ، فهذا إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ فى القرآن أنه حوى علوم الأولين والآخرين ونبأ كل شىء فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن لتتم إحاطته بكل شىء ، فاختير من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا »[2] .

وبعد أن اطمأن السيوطى إلى هذا الرأى ، راح يستعرض العديد من الألفاظ التى وردت فى القرآن ويردها إلى أصولها من اللغات الفارسية والعبرية والقبطية والحبشية والرومية . فذكر الكلمات الآتية التى يتصور كل ناطق بالعربية أنها من أعرق الألفاظ العربية .

---

(١) ابن جنى – الخصائص – ص ٣٥٧ .

(٢) الإتقان – للسيوطى – ص ١٣٧ .

« بعير — جهنم — حواريون — الأرائك — الأسباط — الجبت — الرحمن — الرقيم — سفر — السجل — سرادق — الصراط » .

وهكذا يؤدى بنا البحث فى اللغة العربية كما سجلها القرآن وحفظها حتى اليوم ، أنها حصيلة لغات الإنسانية التى سبقتها كلها . . أما لماذا نقول إن هذه الكلمات هى من هذه اللغات ولا نقول إنها من العربية فى هذه اللغات ، فرجع ذلك إلى أن هذه الأشياء كانت دائماً مجلوبة ومستوردة ، فعندما نجد كلمة القلم فى اللغة العربية ثم نراها فى اللغة اليونانية (كلامس) ، فلا يجوز أن يقال إن أصلها عربى ثم انتقلت إلى اليونانية ، لأن العرب كانوا لا يكتبون وسبقهم الاغريق إلى الكتابة فيكون الأقرب إلى التصور أن اسم أداة الكتابة وهو القلم يونانى انتقل إلى العربية وليس عربياً انتقل إلى اليونانية .

على أن الأمر يستوى فى نظرنا نحن الذين نقول بأن أى لغة من اللغات هى حصيلة التراث الإنسانى كله . . فسواء كان الأصل فى هذه الكلمات هو العربية وانتقلت منها إلى باقى اللغات أو العكس فالنتيجة واحدة فى الحالين ، وهى وحدة التراث الإنسانى .

اللغة العربية كما نستعملها اليوم :

وإذا كان هذا البحث فى الأصول التاريخية يحتاج إلى شىء من الجهد والمشقة ، فإننا لو درسنا اللغة العربية كما نستعملها فى الوقت الحاضر لتبينت لنا هذه الحقيقة التى نقول بها فى يسر وسهولة ، وحسبى أن أثبت لك بعض الألفاظ التى أصبحت تجرى على ألسنتنا فى حياتنا اليومية ، ونكتبها فى صحفنا ، وننطق بها فى إذاعاتنا على أنها لغة عربية من صميم لغتنا وهى كما قلنا ونقول ، حصيلة اللغات الإنسانية كلها منطوقاً وملفوظاً

بأصواتنا ومخارج حروفنا ، ومكتوباً ومعرباً بقوالبنا وقواعدنا النحوية .

وإليك على سبيل المثال :

الميكروسكوب ــ التلسكوب ــ

الراديو ــ التلفزيون ــ التلفون ــ التلغراف ــ الرادار ــ الميكرفون ــ السينما ــ الفيلم ــ الأتوموبيل ــ الكاميرا ــ الفوتوغرافيا ــ الفونوغراف ــ البيك آب ــ الكابريه ــ الترام ــ المترو ــ البص أو الأتوبيس . . . إلخ

ومن الكلمات الدالة على ملابس :

الجاكته ــ البنطلون ــ البالطو ــ الفستان ــ الإشارب ــ الروب ــ النيلون ــ وجميع أسماء الملابس النسائية .

ومن كلمات الزينة :

البودرة ــ الروج ــ المكياج ــ البارفان ــ الكوافير .

وجميع الألفاظ والمشتقات الخاصة بهذه العمليات .

كلمات منزلية : الصالة ــ الصالون ــ التواليت ــ الفرندة ــ البلكونة ــ الأسانسير ــ الكنبة ــ الاستديو ــ البرفان ــ البوتاجاز ــ الفريجيدير . إلخ

ومن أسماء الأمراض :

الأنفلوانزا ــ التيفود ــ التيفوس ــ الروماتيزم ــ اللمباجو ــ الدفتريا ــ الإنكلستوما ــ البلهارسيا ــ الدوسنتاريا . . إلخ

ومن أسماء الأدوية :

الأسبرين ــ البنسلين ــ الكورامين ــ المورفين ــ السلفا ــ الكينين إلخ . . .

وليست هذه الألفاظ إلا عينة أردت بها أن ألفت نظر القارئ إلى مدى تغلغل الكلمات الأجنبية فى حياتنا اليومية ، كل ذلك ولم تطرق بعد إلى مختلف فروع العلم إذ تكاد اصطلاحات تسعة أعشار هذه

العلوم تنطق بلغاتها الأجنبية ، وما عليك إلا أن ترى الأطباء وهم يتحدثون أو المهندسين وهم يتدارسون لترى مصطلحاتهم كلها من عديد من اللغات.

كلمات عربية لا يفهمها السابقون :

بقى أن فى لغتنا العربية المعاصرة ، كلمات وإن كانت حروفها عربية وهى من نحتنا نحن العرب ، ولكنا لو جئنا بعربى منذ مائة سنة فقط لما فهم منها ما نفهمه منها اليوم ولكانت بالنسبة له كلمة أعجمية بحتة . مثال ذلك كلمة الطيارة ، أو السيارة أو المسرح أو الإذاعة ، أو الجامعة ، أو الكلية ، أو الحياة النيابية أو الاشتراكية والشيوعية ، فهذه الكلمات التى نعتبرها اليوم عربية من صميم العربية ، لا يمكن أن يفهمها عربى منذ مائة سنة فقط فضلا عن ألف من السنين ، فكلمة سيارة مثلا وردت فى القرآن بمعنى القافلة . كما لا يمكن أن يفهم من ألفاظنا التى نحتناها كالقومية والشيوعية أو الاشتراكية شيئاً من المعانى التى نرمز إليها بهذه الكلمات .

الحكم واحد بالنسبة لسائر اللغات :

ولا يتصور متصور أن هذا الذى ذكرناه خاص باللغة العربية دون سائر اللغات ، فلو أنا رجعنا إلى اللغة الإنجليزية على سبيل المثال لوجدناها تحقق نفس الظاهرة ، وهى أن اللغة أى لغة لا يمكن إلا أن تكون حصيلة التراث الإنسانى كله .

فاللغة الإنجليزية هى فرع من الأنجلوسكسونية ، التى هى بدورها فرع من اللغة الجرمانية التى هى فرع من اللغة الآرية ، أى أن أصول اللغة الإنجليزية

تحمل تراث البشرية فى القديم مجتمعاً، حتى إذا جاءت العصور الحديثة أى منذ ألفين من السنين استطعنا أن نميز فى اللغة الإنجليزية على ما تقول دائرة المعارف الإنجليزية :

- طبقات من اللغة اللاتينية
- وفرنسية العصور الوسطى
- ولاتينية حديثة وإغريقية
- ثم فرنسية حديثة
- وإيطالية

وعند هذا الحد تقف دائرة المعارف البريطانية فلا تشير أن فى اللغة الإنجليزية عشرات بل مئات من الكلمات العربية التى تدل على الفواكه والأقمشة والمنتجات والأغذيةوالأدوية التى نقلها الأوربيون فى العصور الوسطى من أمثال Lemon أى الليمون ، وsugar أى السكر ، وCotton أى القطن ، والقهوة Coffee ، واللون القرمزى Crimson وحرير الموصل Muslin وغيرها .

بل فات دائرة المعارف أن تذكر أن كلمات علوم بأسرها هى كلمات عربية من أمثال Algebra - Kemistry أى الجبر والكيمياء هى كلمات عربية . . . بل فاتها أن تذكر وقد كانت إنجلترا فى وقت من الأوقات سيدة البحار أن رتبها البحرية ليست سوى كلمات عربية . فالأميرال Admiral ليست سوى أمير البحر العربية ، والكابتن Captain ليست سوى الكلمة العربية قبطان ، وكلمة Arsenal أى الترسانة هى « دار الصناعة » .

ولا عجب فى ذلك فقد كانت الحضارة وكانت العلوم فى العصور الوسطى علوماً عربية ، وكان على أوربا لتأخذ العلم والحضارة أن

تأخذها عن العرب ، فنقلت المعارف بأسمائها العربية ولم يكن باستطاعتها أن تفعل غير ذلك . ولا تزال الأرقام فى اللغات الأوربية كلها تنم عن أصلها العربى ، ولا تزال ترسم كما رسمها العرب تقريباً ، ولا يزال يطلق عليها اسم الأرقام العربية . أما كلمة الصفر فلا تزال تستعمل بنصها العربى . وعندما امتدت الإمبراطورية الإنجليزية وشملت شعوباً من أفريقيا وآسيا ، كان لا مناص من أن تستوعب اللغة الإنجليزية ، أسماء كل المسميات بلغة أصحابها ، وأن يصبح ذلك كله جزءاً من بنية اللغة الإنجليزية ، كما أصبح من بنية اللغة العربية فيما مضى . . .

وهكذا يتضح ما قلناه من أن أى لغة حية تتفاعل مع الأحداث ولا تعيش فى عزلة عن تيار الحياة لا يمكن إلا أن تكون حصيلة التراث الإنسانى كله ، بكل فروعه وتشعباته وتجاربه .

وحدة العلم والثقافة :

وبغير هذه الحقيقة لم يكن من المستطاع أن يكون للإنسانية علم واحد ينتفع به على مر العصور والدهور ، وثقافة مشتركة هى ثقافة بنى الإنسان مجتمعين ، فكيف كان من الممكن أن تترجم الآثار الإنسانية العقلية منها والفنية من لغة إلى أخرى ، إلا إذا كان هناك أساس مشترك لهذه اللغات كلها ، وما الأساس فى حقيقته إلا العقل الإنسانى خالق اللغة وسيدها ، وقد رأينا فى تاريخ الإنسانية ، كيف انتقلت دائماً المعارف الإنسانية فى يسر وسهولة من شعب إلى شعب ومن أمة إلى أخرى ، دون أن يقف اختلاف اللغات حائلا دون تمام ذلك .

فالمعارف المصرية القديمة قد انتقلت إلى الإغريق ، ومن خلال الإغريق انتقلت إلى اللاتين أى الرومان ، ثم انتقل ذلك كله إلى العرب فى القرون الثلاثة الأولى للإسلام بصفة خاصة .

وبدأت أوربا نهضتها الحديثة فى العصور الوسطى بالنقل من العربية إلى اللغات الأوربية ، وعندما رغب يطرس الأكبر فى النهوض بروسيا للحاق بركب الحضارة الأوربية بدأ بالنقل والترجمة .

ولم تنهض اليابان إلا بعد أن أقدمت على ترجمة أمهات الكتب العلمية الأوربية .

ونحن العرب لم نبدأ نهضتنا الحديثة منذ أيام محمد على إلا عندما شرعنا نترجم عن اللغات الأوربية .

ولم يكن عجيباً ولا مستغرباً أن نكتشف ونحن ننقل عن الغرب ، أنهم قد سبقونا للاستفادة من تراثنا العربى والإسلامى ، فوجدنا عندهم عشرات الألوف من الكتب والمباحث والدراسات فى أخص خصائصها التاريخية والأدبية والدينية ، حتى لقد وجدنا عندهم الكتب العربية التى تسجل سيرة نبينا وقد أعيد طبعها وتنظيمها وتبويبها كسيرة ابن هشام ، وجدنا عندهم قرآننا مفهرساً ومرتباً على حسب الموضوعات ، بل وجدنا عندهم مفتاحاً لكنوز السنة ، حيث يكفى أن يعرف الإنسان لفظة واحدة من أى حديث نبوى لكى يستدل على نص الحديث بتمامه وكماله وعن مكانه . ووجدنا عندهم دائرة معارف إسلامية ووجدنا عندهم كبرى موسوعاتنا التاريخية كتاريخ الطبرى ، ووجدنا عندهم المباحث العميقة للغتنا وأصولها واشتقاقاتها وأدبها وشعرها ونثرها ، ووجدناهم يجوبون العالم بحثاً خلف مخطوطاتنا القديمة وبحثاً خلف جزء ناقص من كتاب ، أو لتصويب نسبة ديوان شعر إلى صاحبه ، وهكذا رأينا أنفسنا مضطرين أن نوفد البعوث إلى جامعاتهم ، والجلوس منهم مجلس التلميذ لتلقى الكثير

من أصول لغتنا وتاريخنا بل ديننا [1] ، بحيث قاد نهضتنا الأدبية الحديثة من تخرجوا من جامعات أوربا .

وهذا إن دل على شيء ، فعلى أن العلم لا وطن له والمعرفة تراث إنسانى ، وأنه لا الخلاف فى اللغة أو الدين أو الحظ من السلطان بالذى يحول دون وحدة التراث الإنسانى ، واهتمام كل عالم وكل مثقف وكل باحث ودارس ، بالإنسانية فى مجموعها ، يرجع إلى أنه غير قادر على أن يضيف للعلم جديداً ، أو يخترع أو يكتشف أو يستنبط إلا أن ينظر فى آثار كل من سبق ، وقد حقق العلماء ذلك عن طريقين ، إما بأن يطالعوا هذه الآثار فى لغتهم بعد أن يكون الآخرون قد تولوا ترجمتها إلى لغتهم ، وإما أن يكون بتعلم اللغة الأجنبية لمطالعة هذه الآثار فى لغاتها الأصلية .

وما من متعلم فى عصرنا الحديث فضلا عن مثقف أو عالم إلا يعرف لغة أجنبية أو أكثر ، أو على أقل تقدير يطالع إنتاج العلماء الآخرين أو الأدباء والمفكرين والفنانين منقولا إلى لغته الخاصة . وهذا ما يجعل المثقفين فى مختلف شعوب الأرض يحسون بقدر من التعاطف فيما بينهم ، بل يحسون برباط خاص يربطهم بعضهم ببعض ، مهما اختلفت أجناسهم أو شعوبهم أو الأوضاع السياسية ، بأكثر مما يتعاطفون مع مواطنيهم من غير العلماء والمثقفين . وكم من عالم تطالع كتبه وتدرس فى غير بلاده ، بأكثر مما تقدر فى موطنه ، وكم من أديب أو فنان يلقى النجاح والرواج بين شعوب غير شعبه وخارج حدود بلاده ، إحساساً منه بوحدة التراث الإنسانى ، وكم شهدنا من علماء أفنوا حياتهم لإحياء

---

(١) أوفد الأزهر أعظم جامعة إسلامية وأقدم جامعة فى العالم بعثة إلى ألمانيا « بعثة محمد عبده » للاستفادة من البحوث الألمانية فى الدراسات الإسلامية .

تراث شعوب غير شعوبهم و بلاد غير بلادهم ، ولعل من أظهر الأمثلة فى عصرنا الحديث هو مساهمة علماء العالم ومثقفيه للعمل على إنقاذ معبد أبى سنبل من الغرق نتيجة إنشاء السد العالى فى مصر ، حيث تسارع الجميع مابين نداء مصر لمد يد العون المادى والأدبى لتحقيق هذا الغرض النبيل .

لا يعرف التاريخ حروباً بسبب اختلاف اللغة :

وآخر ما نسوقه فى هذا الموضوع لإثبات أن اختلاف اللغات لا يشكل أى حاجز بين الشعوب ، ولم يكن فى يوم من الأيام مصدر متاعب للإنسانية ، أن التاريخ قد حوى بين صفحاته المعجب والمطرب من أسباب قيام الحروب واشتعالها بين الشعوب والأمم ، فقامت الحروب للخلافات الدينية والمذهبية والسياسية ، وقامت لاغتصاب هذا الشيء أو ذاك ، وقامت للأخذ بالثأر والانتقام والرغبة فى الاستعلاء ، وقامت نتيجة الطمع ومجرد الرغبة فى الإيذاء ، ولكن التاريخ لم يسجل لنا حرباً واحدة . . واحدة فقط قامت بين أمة وأمة بسبب اختلاف اللغة أو لغرض فرض لغة قوم على آخرين ، حقا لقد قامت حركات فى داخل البلد الواحد فى القرن التاسع عشر لفرض لغة معينة على المحكومين أو لمقاومة فرضها ، ولكن الحرب لم تقع أبداً بسبب اللغة ، وهو ما يقطع بأن اللغة لا تؤلف أحد أسباب الخلاف أو المنازعات بين البشر .

لغة واحدة برموز مختلفة :

وإلى هنا نكون قد انتهينا سواء من الناحية البيولوجية الفسيولوجية ، أو من الناحية التاريخية والاجتماعية ، أو من الناحية الواقعية ، إلى إظهار وحدة اللغة الإنسانية ، وأن الرموز الدالة على شيء واحد إن اختلفت ، فليس أيسر على العقل من أن يحل رمزاً مكان رمز ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح من أيسر الأمور أن يتفاهم الإنسان مع أخيه الإنسان بمجرد تلاقيهما وإن جهل كل منهما لغة الآخر ، بل حتى لو كان أحدهما أو كلاهما فاقد القدرة على النطق من أساسها .

ورأينا فيما مرّ بنا ، أن اختلاف اللغات لم يؤلف أبداً حاجزاً بين الشعوب فضلاً عن انتقال المعارف وآثار المدنية من مكان إلى مكان .

العلم الحديث والتكنولوجيا يقضيان على آخر صعوبة من جراء تعدد اللغات :

وقد بقى أن نضيف إلى ما سبق آخر ما انتهت إليه التطورات العلمية ، التى مكنت الإنسان من اختراع الآلات التى أجهزت نهائياً على أى صعوبة تنشأ من جراء اختلاف اللغات ، وذلك ابتداء من الراديو والترجمة الفورية ، وانتهاء بالترجمة الآلية عن طريق العقول الألكترونية .

فأما بالنسبة للراديو ، فقد أصبح بقدرة أى إنسان أن يقف على ما يجرى فى أنحاء العالم بلغته الخاصة وقت حدوثه ، ليس فقط من مذياع دولته بل من مذياع أى دولة أخرى ، حيث بدأت كل أمة تذيع أخبارها

وإنتاج ثمرات عقول أبنائها بمختلف اللغات ، كما بدأت كل دولة من ناحيتها تنقل ثمار العقول الإنسانية المختلفة إلى لغتها .

الترجمة الفورية فى المؤتمرات الدولية :

وفى المؤتمرات الدولية التى أصبحت شعار العصر وطابعه ، والتى بدأت تعقد فى كل يوم بل فى كل ساعة فى مختلف أقطار العالم لمعالجة شتى الموضوعات التى تمس البشرية سواء فى الميادين السياسية أو الفكرية أو العلمية أو الأدبية أو الرياضية ، نرى المجتمعين فى هذه المؤتمرات لم يعودوا يجدون أى صعوبة للتفاهم فيما بينهم كما لو كانوا أبناء أسرة واحدة ، وذلك عن طريق الترجمة الفورية لكل لغة يتلفظ بها ، ثم إعادة إذاعة ما قيل بشتى اللغات التى تناسب كل واحد من المؤتمرين وهكذا يصغى الجميع للمتكلم ويتلقون عنه كلامه كلمة كلمة بلغاتهم الخاصة ، ثم يردون عليه بنفس الأسلوب .

الترجمة الآلية الألكترونية :

ويأبى العصر الحديث إلا أن يثبت بطريقة حسابية واقعية لا تحتمل الجدل وحدة اللغة الإنسانية وإن اختلفت رموزها ، إذ جعل بقدرة الآلات أن تحوّل هذه الرموز مكان بعضها البعض ، فأصبحوا يحدثوننا عن العقول الألكترونية الجبارة التى تملكها البحرية الأمريكية وغيرها والتى توضع بها المؤلفات الروسية والمقالات والأبحاث الخاصة بالذرة والفضاء بل الصحف اليومية ، لتخرج بعد ذلك مترجمة إلى اللغة الإنجليزية فى دقائق إن لم يكن لحظات . وليس ذلك سوى البداية ، فقد أعلن أخيراً

عن البدء فى إنتاج أجهزة ألكترونية صغيرة الحجم يستطيع أى إنسان أن يحملها ، لتقوم له بعملية ترجمة الكلمات الأساسية فى أى لغة من اللغات وإذا كان ما يقال من أن هذه الآلات ستكون قاصرة فى بادئ الأمر على ترجمة خمسمائة كلمة فليس ذلك سوى البداية . . ومعنى ذلك أنه لن يمر وقت طويل حتى يكون بقدرة أى إنسان أن يحمل جهازاً صغيراً فى حجم الترانزستور ، لكى يتفاهم مع أى إنسان فى أرجاء العالمين بأى لغة .

والخلاصة :

والخلاصة أن الوقت قد حان للكف عن المبالغات والتهويلات التى تضفى على اللغة وإظهارها فى صورة الأساس الأول إن لم يكن الأوحد الذى يقسم البشر إلى أمم وشعوب وقوميات متباينة . فمثل هذه الأقوال إن صلحت فى القديم ، حيث كانت القداسة تضفى على الكلمات والألفاظ وتعزو إليها قوى سحرية وقدرات غامضة ، فإن ذلك لم يعد يناسب زمناً أصبحت الآلات فيه تتولى الترجمة ونقل رموز الكلمات من لغة إلى لغة . وإذا كنا نحن ممن يؤمنون بما للألفاظ من قوة بالفعل ، فإن هذه القوة هى قوه الناطق بهذه الألفاظ لا فى الألفاظ نفسها .

وقد آن الأوان لكى نتواصى بوضع اللغة فى مكانها الصحيح وهو ما لانفتأ نقوله ونكرره من أنها أداة كأى أداة أخرى اخترعها العقل الإنسانى لإشباع حاجاته ، وتحقيق أغراضه فى حياة أسعد وأكمل ، فينبغى النظر إلى اللغة دائماً على أنها من صنع الإنسان ومن أجل الإنسان ، وليس الإنسان من أجل اللغة .

وإنه لا يوجد بين البشر سوى لغة واحدة ، هى اللغة الإنسانية التى مهما تعددت رموزها ، واختلفت أصواتها ، فمدلولاتها واحدة وأصلها فى

عقل الإنسان ، ولولا أن اللغة واحدة لما كان باستطاعة الآلات ، أن تقوم بترجمتها أى إحلال رموز محل رموز ، لأن الرموز كلها من طبقة واحدة ، حيث لا تستطيع آلات الدنيا كلها مجتمعة أن تغير من لون الإنسان فتحوله من أسود إلى أبيض أو من أصفر إلى أحمر ، فضلا عن أن تطيل فى قامته أو تنقص من طوله ، وما ذلك إلا لأن هذه الخلافات من طبيعة مختلفة ، وليس كذلك الخلاف بين اللغات والكلمات والألفاظ .

خاتمة

فى وحدة التاريخ والمصلحة والمصير

قلنا فى مقدمة هذا البحث إننا يجب أن نروض أنفسنا على أسلوب جديد من التفكير، يتناسب وما وصل إليه الإنسان من رقى علمى وتكنيكى جعل من الكرة الأرضية وطناً واحداً للنوع الإنسانى، بحيث أصبح باستطاعة أى إنسان أن يقول العالم قريتى.

ولقد انتهينا فى الفصول الثلاثة المتقدمة إلى إثبات وحدة الأرض باعتبارها منبت الإنسان ومآله فى النهاية، ثم كشفنا عن وحدة الجنس الإنسانى المنحدر من صلب إنسان أول، أيًّا كان الخلاف على تصوره، فالاتفاق على وحدته. وانتقلنا بعد ذلك للحديث عن وحدة اللغة، باعتبارها نتاج العقل البشرى ومناط إنسانيته وأظهرنا كيف أن أى لغة من لغات العالم فى العصر الحديث لا يمكن إلا أن تكون حصيلة التراث الإنسانى السابق عليها.

وحدة التاريخ :

ومثل ذلك يقال عن تاريخ الإنسان، الذى يقدر له البعض عمراً على هذه الأرض مليوناً من السنين فى حين يهبط البعض بهذا الرقم إلى مائة ألف سنة أو أقل من ذلك، وأيًّا كان القدر الذى عاشه الإنسان الأول، الذى نمت له بصلة القربى، على هذا الكوكب، فقد عاش القدر الأكبر من حياته وهو لا يعرف له وطناً إلا هذه الدنيا الفسيحة من حوله

لا يصده عن التنقل فيها حدود سياسية أو حواجز جمركية ، أو جوازات سفر وتأشيرات دخول وخروج .

عاش الإنسان الجزء الأكبر من حياته على هذا الكوكب يرى فى نفسه نوعاً ، يختلف عن سائر ما فى الدنيا من أنواع ، فلم يبذل نشاطه فى معاداة نوعه ، فضلا عن أن يعمل على القضاء عليه ، وإنما كرس كل جهده فى التغلب على ما يعرض له من مشاكل طبيعية ، ساعياً لتوفير التعاون مع أبناء جنسه وأفراد نوعه .

والرأي على أن الإنسان لم يعرف الحرب بين جماعاته إلا فى وقت قريب جداً ، وفى هذا يقول لنا جوليان هوكسلى العالم المادى الكبير ، فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث » :

والحرب ظاهرة بيولوجية نادرة جداً ،وليس يوجد إلا نوعان من الحيوانات ، من عادتهما الاشتباك فى الحروب ، وهما الإنسان والنمل . بل إن النمل لا يمارس الحرب منه إلا جماعة واحدة فى الغالب ، وكثير من علماء تاريخ السلالات البشرية يعتقدون أن الحرب ، أو على أية حال الحرب المنظمة المألوفة ، لم تنشأ فى مراحل تطور الإنسان، إلا عند ما وصل إلى طور المدنية المستقرة ، وبدأ يكنز الحبوب وغيرها من صنوف الثروة » .

ونحن نعلم أن عصر المدنيات والحضارة ، لم يبدأ إلا منذ سبعة أو ثمانية آلاف سنة على الأكثر ، على حوضى الدجلة والفرات من ناحية وحوض النيل من الناحية الثانية ، عند ما بدأت القبائل تستقر فى مدن لتمارس الزراعة ، وبدأت المدن المتقاربة تخضع لحكم أمير واحد ، ومن ثم بدأت هذه الوحدات الجديدة تدخل فى حروب مع جيرانها ، لتؤلف وحدة أكبر ، وهكذا نشأت الدول والإمبراطوريات ، التى

حاول كل منها أن يفرض سلطانه على من يجاوره من خلال المعارك والحروب .

على أن الظاهرة المؤكدة أن الحروب والمعارك ظلت فى أضيق نطاق لا تتعرض فيه لغير المحاربين ، مما جعل تيار الحضارة يتدفق دوماً للأمام لا يعرقله زوال إمبراطورية وقيام إمبراطورية جديدة .

بل ربما كان الاحتكاك بين الجماعات ، والمعارك بين الدول ، من أكبر الحوافز للخلق والابتكار والإبداع .

ولقد كتبت منذ أكثر من عشرين سنة والحرب العالمية الثانية مشتدة الأوار رسالة فى موضوع الحرب ، أثبت فيها أن كثيراً مما حققه الإنسان من اختراعات واكتشافات إنما تم من خلال الحروب والمعارك ، حيث كان كل إنسان يقدح زناد فكره لابتكار أسلحة ووسائل يهزم بها خصمه ، وقد استخدمت هذه المبتكرات بعد ذلك فى أيام السلم فضاعفت فى رخاء الإنسان وقدرته على الإنتاج .

وهكذا عاشت البشرية حتى الآن وهى تمسك بالفأس فى يد تزرع بها وتنتج ، وتمسك بالسيف فى اليد الأخرى ، تحارب بها وتفتك .

الأسلحة النووية الحديثة :

على أن البشرية قد وصلت اليوم إلى نقطة ، لم تعد الفأس تكفى فيها لإطعام بنى الإنسان ، فلا بد من مشروعات جبارة لإقامة السدود والخزانات لاستغلال موارد المياه ، ولا بد من آليات ومحاريث وجرارات وكيماويات ، كما لم يعد السيف أو الرمح أو حتى المدفع هو آلة القتال ، المحدودة الأثر ، وإنما قنابل ذرية وهيدروجينية وكوبالت ، مما أصبح يطلق عليه اسم قنابل « يوم القيامة » ، ذلك أن الثقات يقررون بالإجماع

أنه لو قامت حرب نووية فإن ضحاياها فى الساعات الأولى للمعركة سوف يتجاوز ثلثمائة مليون نسمة من سكان المدن الكبرى ومراكز الإنتاج الصناعى والعلمى والثقافى. أما استمرار الحرب بعد ذلك لبضعة أيام أخرى، فإن هذا يعنى فناء البشرية كلها.

ولتنقل لك فقرة من تقرير هيئة الأمم عن نزع السلاح لعام ١٩٦١ :

« إننا نشك فى استمرار وجود العالم بأى شكل من الأشكال دون نزع السلاح ، إن شبح الموت يسيطر علينا ، فإن طيران سرب من الإوز البرى فى هدوء عبر أركاتيكا البيضاء (القارة القطبية) ، ثم دخوله فى نطاق تحذير شاشة رادار أمريكى أو سوفييتى ، تتصوره الشاشة على أنه صواريخ ، فتتأهب حكومة الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتى للقيام بالضرب النووى المضاد كما تقضى الحالة ، فيبدأ إعصار الحرب النووية ، فى حين يطير الإوز فى هدوء إلى الأمام . والحق أن الإوز سيكون هو المخلوق الوحيد الذى يظل حيا بعد حرب عالمية » .

ولا يظن القارئ أن هذا الذى ختمت به لجنة نزع السلاح تقريرها مجرد فرض نسجته من وحى الخيال، فهى إنما تشير إلى حادث وقع بالفعل، فإن محطة الرادار النووية الموجودة فى شمال جرينلند المخصصة للإنذار عند اقتراب قاذفات القنابل السوفييتية ، قد أعطت الإنذار فقام الطيارون المدربون على أن يكونوا فى الجو فى ظرف دقيقتين بطائراتهم ، حاملة القنابل الهدروجينية ، بالطيران، ثم اتضح للرادار أن القذيفة التى شوهدت على شاشة الرادار لم تكن إلا سرباً من الإوز[1] ».

فالحروب الذرية اليوم إذا اندلعت ، لن تكون كحروب الأمس ، التى سمحت للحياة الإنسانية ، وللحضارة الإنسانية ، بالنمو والتطور ،

---

(١) كتاب « الأمة الإنسانية » للمؤلف .

بله الازدهار ، إنها حرب إفناء ، إن لم يكن للجنس البشرى فعلى الأقل لحضارته.

الانفجار السكانى :

على أن ثمة خطراً آخر أصبح يهدد الإنسانية ، يكاد لا يقل أثراً فى المدى الطويل عن خطر الحرب النووية ، وهذا الخطر هو ما أصبح يعرف باسم الانفجار السكانى ، والذى يقربه إلى أذهاننا أن البشر يتزايدون بمعدل ثلاثة أشخاص كل ثانيتين ، أى بمعدل تسعين شخصاً فى الدقيقة الواحدة ، و ٥٤٠٠ شخص كل ساعة ، أو ١٢٩,٦٠٠ شخص كل يوم و ٤٧,٣٠٠,٠٠٠ شخص فى السنة ، أى ما يزيد على مجموع سكان فرنسا بأكملها .

وقد أجمعت كل الكتب التى ألفت قبل عام ١٩٦٠ على أن سكان العالم سيصلون فى ختام القرن العشرين ، أى بعد ٣٣ سنة من الآن إلى ثلاثة آلاف مليون نسمة . وقد استند المؤلفون على بيانات هيئة الأمم الدقيقة التى تصدرها كل عام حول عدد المواليد . وكان هناك تخوف من بلوغ العالم هذا القدر من السكان .

ويتجلى لك خطر الانفجار السكانى ، عندما تعلم أن الأمر لم يحتج إلى انقضاء ثلاث وثلاثين سنة لكى يصل سكان العالم إلى هذا القدر ، فقد تجاوز عدد البشر الآن فى عام ١٩٦٧ ، هذا القدر بعدة ملايين . وأصبح التقدير الجديد لما سيكون عليه عدد السكان فى نهاية القرن ، أى عام ٢٠٠٠ عدداً يتراوح بين ستة آلاف وسبعة آلاف مليون نسمة ، أى ضعف ما كان مقدراً منذ بضع سنوات .

ويقول الخبراء إن العالم لو استمر فى الزيادة السنوية بهذا المعدل ،

فإن سطح الأرض لن يتسع لموطئ أقدام البشر بعد بضعة قرون فقط[1] . ومعنى ذلك أن إنقاذ العالم من حرب ذرية ، من شأنه أن يفضى بالبشرية إلى سلام لا يقل أثراً فى تدميرها وإفنائها .

ضرورة التعاون بين البشر :

ولا سبيل لإنقاذ البشرية من هذا الخطر ، إلا بالعمل على رفع مستوى الشعوب المتخلفة شعوب آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية ، ذلك أن هذه الزيادة الوفيرة من النسل ، إنما تنشأ نتيجة التخلف ، وكلما ازداد رقى الإنسان قلّ نسله ، وهى ظاهرة محققة ومؤكدة ، فحيث لا يتزايد سكان أوربا إلا بنسبة ٩ من عشرة من الواحد الصحيح فى المائة ، نرى شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية تتزايد بنسبة ٢,٣٪ كل عام .

وقد أصبح من المتفق عليه ألا سبيل لرفع مستوى الشعوب المتخلفة ، إلا من خلال تعاون دولى ، حيث يضع القادرون إمكانياتهم المالية والعلمية ، والتكنولوجية ، تحت تصرف الأمم المتخلفة ، وذلك لمضاعفة الإنتاج عن طريق التصنيع ، واستغلال موارد الأرض إلى أقصى حد ، وزراعة المستنقعات والغابات والصحارى ، وتحويل مياه البحر التى تؤلف ثلثى مساحة الكرة الأرضية ، إلى مصدر رئيسى للغذاء ، وكل ما يحتاج إليه الإنسان من معادن لازمة لصناعاته .

المائة العام القادمة :

وقد وضعت خطط محسوبة ومدروسة للارتفاع بمستوى الإنسانية كلها فى المائة العام القادمة ، إلى مستوى الحياة الأمريكية الحاضرة ،

---

(١) « الأمة الإنسانية » للمؤلف .

وقد وجد أن فى الأرض من الموارد والمصادر ما يكفى لتحقيق هذا الهدف شريطة أن يبدأ البشر منذ الآن تعاونهم فى إخلاص وصدق فى ظل هيئة الأمم وسيادة حكم القانون فى العلاقات بين الدول بعضها ببعض[١].

نموذج من العالم العربى :

وحسبنا أن نلقى نظرة على العالم العربى فى حاضره، وماذا يمكن أن يكون عليه حاله فى غده لو أنه تعاون فيما بينه ، لكى تتضح لنا صورة العالم كله إذا تعاون .

فالعالم العربى يبلغ من حيث المساحة ١١ مليون كيلومتر مربع ، أى قدر مساحة أوربا مجتمعة . وفى هذه المساحة الكبيرة لا يوجد من السكان سوى ٩٠ مليون نسمة ، حيث تغص أوربا بـ ٤٣٤ مليون نسمة .

وبالرغم من أن سكان العالم العربى لا يؤلفون إلا أقل من ٣٪ من سكان العالم ، فإنهم ينتجون من القمح ٣٫٥٪ من الإنتاج العالمى أى ٧ ملايين طن بل إن مقدار ما ينتجه العالم العربى من الحبوب الغذائية (قمح وشعير وذرة) يبلغ ١٧ ملايين طن ، أى أنه يخص الفرد الواحد ٢٠٠ كيلوجرام سنويا وهو قدر يفيض عن الحاجة[٢].

كما ينتج العالم العربى ٣ ١/٤ ملايين طن من الكروم وهو ما يساوى ٨٪ من الإنتاج العالمى ، و ١٫٥ مليون طن من الحمضيات ، وهو ما يساوى

---

(١) « الأمة الإنسانية » للمؤلف .

(٢) الموارد الاقتصادية فى العالم العربى — الدكتور محمد صبحى حكيم .

٩٪ من الإنتاج العالمى . ويوجد بالعالم العربى من الثروة الحيوانية أكثر من مائة مليون رأس ما بين أبقار وجاموس وإبل وأغنام ، أى بنسبة أكثر من رأس لكل فرد من السكان، وندع حديث الحديد والفوسفات الذى تنتجة بلاد شمال أفريقيا الثلاث : المغرب والجزائر وتونس ، والذى يؤلف نسبة كبيرة من تجارة الحديد الخام والفوسفات فى العالم ، وحسبنا أن نشير إلى البترول العربى الذى أصبح يتدفق من كل شبر من البلاد العربية ، حيث أصبح أكثر من ٦٠٪ من البترول فى العالم موجود فى البلاد العربية . ويوجد فى السودان من الأرض الزراعية ، ما يزيد على مائة مليون فدان ، لا تزرع فى الوقت الحاضر لافتقار السودان فى الدرجة الأولى إلى الأيدى العاملة ، وكذلك الحال فى العراق وسوريا ، التى كانت كل منهما تضم فى عهودها الزاهرة عشرات الملايين من السكان حيث تشكو فى الوقت الحاضر من قلة اليد العاملة .

وتعانى ليبيا بعد اكتشاف البترول بها من قلة اليد العاملة كذلك .

وهذا كله فى الوقت الذى تعانى فيه مصر مشكلة تزايد السكان ، بصورة تعرقل محاولاتها الصادقة ، لرفع مستوى معيشة أبنائها .

القارة الإفريقية :

هذا الوضع بالنسبة للعالم العربى ، هو نفسه وضع القارة الإفريقية كلها ، فحيث تعتبر أفريقيا أغنى قارات العالم على الإطلاق، فإن سكانها القليلى العدد جداً يعانون شظف الحياة .

فأما أنها أغنى قارات العالم، فإن ذلك يتضح من كونها تمتلك من موارد توليد الكهرباء من مساقط المياه ثلاثة أضعاف ما تنتجه أوربا من هذه

الطاقة[1] ، وتنتج ٩٨٪ من الماس فى العالم ، وأكثر من نصف ذهب العالم ، وكانت حتى سنوات مضت هى المصدر الوحيد لمعدن اليورانيوم .

وهى تملك أغنى ثروة حيوانية فى العالم .

كل ذلك وعدد سكانها لا يزيدون على مائتين وخمسين مليوناً .

علاج العالم العربى والأفريقى والإنسانى :

ولا علاج للعالم العربى ، كما لا علاج للعالم الإفريقى ، والعالم الإنسانى فى مجموعه إلا إذا ارتفع إلى مستوى المسئولية التى أصبح العلم الحديث يفرضها عليه . فيعيد صياغة العلاقات الدولية ، على أساس من التعاون لتحقيق المصلحة المشتركة فى ظل سيادة القانون ، مما فصلناه فى كتابنا « الأمة الإنسانية » .

وبغير هذا التعاون الصادق ، سيبقى مستقبل البشرية بعامة ومستقبل الحضارة الإنسانية بخاصة فى خطر .

والكلمة الآن لبنى الإنسان ، إن شاءوا عاشوا وارتفعوا بمستواهم ، وحسنوا أحوالهم فى ظل السلام والتعاون الإنسانى .

وإن شاءوا عرضوا أنفسهم للخراب والدمار الشاملين ، وجعلوا ما على سطح الكوكب الإنسانى حصيداً كأن لم يغن بالأمس .

وفقنا الله وهدانا إلى سبل السلام والرشاد .

---

(١) دائرة المعارف البريطانية .

مراجع الكتاب
حسب ورودها فى فصول الكتاب

- مختصر تاريخ العالم (بالإنجليزية) هـ . ج . ويلز
- مع الله فى السماء — الدكتور أحمد زكى
- الفلك العام — هربرت سبنسر جونس، ترجمة عبد الحميد سماحة والدكتور حلمى عبد الرحمن
- العالم من حولنا — أديث راسكن — ترجمة الدكتور أحمد أبو العباس
- قصة الحضارة — ول دورانت — ترجمة محمد بدران والدكتور زكى نجيب محمود
- دائرة معارف القرن العشرين — للعلامة محمد فريد وجدى
- النظرة العلمية — برتراند راسل — ترجمة عثمان نويه
- الحياة ونشأتها — أنور عبد العليم
- حضارة مصر القديمة وآثارها — الدكتور عبد العزيز صالح
- ماوتسى تونج — روى ماك جريجور — ترجمة حسين الحوت
- مذكرات على العلاقات بين الأجناس (بالفرنسية) ج سبللر
- موسوعة تاريخ العالم — وليم لانجر ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة
- المجتمع — رام ماكيفى — ترجمة الدكتور أحمد عيسى
- تاريخ إنجلترا — الدكتور نظير سعداوى
- محاضرات فى اللهجات — الدكتور أنيس فريحة
- اللغة والمجتمع — الدكتور على عبد الواحد وافى

ـ فجر العرب	عبد العزيز الدسوقى
ـ الخصائص	أبو الفتح عثمان بن جنى
ـ اللغة العربية كائن حى	جورجى زيدان
ـ قصة الجنس البشرى	هندريك فان لون ـ ترجمة إبراهيم زكى خورشيد وأحمد الشنتناوى
ـ الاتقان	للسيوطى
ـ الإسلام والثقافة العربية	أنور الجندى

مراجع عامة

ـ القرآن الكريم
ـ العهد القديم
ـ العهد الجديد
ـ دائرة المعارف البريطانية (بالإنجليزية)
ـ دائرة المعارف الأمريكية (بالإنجليزية)
ـ دائرة معارف العلوم الاجتماعية (بالإنجليزية)
ـ تاريخ الطبرى

مراجع للمؤلف

ـ الطاقة الإنسانية
ـ الأمة الإنسانية
ـ من وحى الجنوب

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر



إنتاج

قسمة

